الغرفة ٢١٣

رواية قصيرة

NOVELLA

هيثم بهنام بردى

طبعة ثانية

٢٠١٧

ولكن الإنسان لم يخلق للهزيمة

الإنسان قد يُدَمَّر

ولكنه لا يُهزَم

همنغواي

اسم الكتاب: الغرفة ٢١٣

جنسه: رواية قصيرة NOVELLA

اسم المؤلف: هيثم بهنام بردى

لوحة الغلاف: صورة فوتوغرافية للبحر والروشة ببيروت.

الطبعة: الثانية ٢٠١٧

صدرت طبعتها الأولى عن (مطبعة أسعد) - بغداد، عام ١٩٨٧

رقم الإيداع ١٩٠ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٦

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة سواءً كانت (إلكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو بخلاف ذلك، إلاّ بموافقة كتابية من المؤلف.

ALL rights reserved to the Writer, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means. Electronics, Mechanical photo coping, recording of ather wise, with out prior permission in writing from the Writer.

توطئة

- إنه القصف مرة أخرى.

تعالت أصوات الانفجارات، وأومض الليل ببريق باهر، همست الفتاة.

- إنه قريب جداً.

قفزت من الفراش وهرعت نحو باب الغرفة في غلالة النوم، حافية متلصصة وقدماها تقودانها غريزياً نحو الملجأ، وقفت جنب حائط متصدع وحدقت من خلل الظلمة المتفشية... ها هو فم الملجأ، كأنه مدخل مغارة منسية في جبل جبار، والصفائح المليئة بالرمل تغطي بابه حتى موضع السرّة، والصمت يلفه، الصمت يلف بيروت لهنيهة وامضة، ليت هذا الصمت يمتد ويتكاسح حتى آخر الحياة، إنه صمت من نوع خاص، صمت مقدس، صمت عاهر، صمت رخيص، لأستغل هذا الصمت النادر وأعبر الشارع نحو الملجأ، نحو الحيطان الأربعة التي تسوّر عالماً قاتماً، الظلمة فيه حيوان أسطوري نائم ببلادة في مصباح معطوب أكله الصدأ والإهمال، قذيفة ومضت في الفضاء تحمل في طياتها الموت المجاني المباح، فتشابكت الأقدام المتسارعة بارتباك وكادت الفتاة تقع على الرصيف، ولكنها وجدت نفسها —لا تدري كيف - في الملجأ، دخلت العالم الصغير/ الكبير، الذي أصبح، مع الأيام، ملاذاً لكل من يود معانقة الحياة باصرار، نظرت إلى الوجوه... جامدة،

صافنة، راعبة، الخوف فيها دكتاتور، والصمت فيها ملك جليل يجلس على عرشه بكسل وبلادة،... الملجأ يعج بالأجساد، كل الزوايا مملوءة، إنزوت الفتاة لصق الحائط، فوقها تماماً ثمة نافذة متكسرة الزجاج يأتي منها الهواء بارداً يصفع الوجوه فيشيع فيها يقظة حذرة وتوجس خائف، نظرت الفتاة إلى الوجوه تستقريء دواخلها، وجدتها تنظر نحو عماد، وعماد بوجهه الصغير ينظر نحو الجميع ويستطرد مواصلاً.

- إنها لعبة لا نزال نعيش فصولها الدرامية..

ثم يتوقف ويسأل أحدهم.

- أتدري يا عامر، لم تدور رحى هذه الحرب؟

فيقاطعه عامر بحدة.

- لكي يتطهر لبنان من أدرانهم.

طفل في الزاية صرخ بلجاجة.

- ماما... ماما، أريد أن أتغوط.

وإلتوت الأعناق نحو الطفل الذي اتجه نحو أمه التي افترشت الأرض وقاربت قدميها، أصابع القدم اليمنى لصق اليسرى، وكعب اليمنى متوحد باليسرى، وقف ونزع بنطاله القصير، رفعته أمه وألصقت مؤخرته العارية بالفسحة المحصورة بين القدمين، فأخذ الطفل يعصر بصوت مسموع... هتف كهل

بضراعة.

- من أجل الأطفال، من أجل الأمهات البائسات، من أجلنا نحن الضعفاء... أبتهل إليك يا ربي أن ترفع هذه المصيبة عنا.

وأكمل عماد كلامه.

- إنها ليست مشكلتك، حسب، يا عامر... إنها مشكلة الجميع، حين استطاع الأعداء أن يقنعوكم بنظريتهم التي تقول:.... إن الفلسطينيين حينما يدخلون أرضاً يعيثون فيها فساداً وفوضى...

أجابه عامر بمماحكة وعناد.

- إنها الحقيقة.

إعتدلت الفتاة في مكانها وفي نفسها شيء، وقبل أن تبدر عنها أية حركة ألقت نظرة مذهولة نحو رجل انزوى لصق الحائط، وبكّر اللحظات سمعت صوت رشرشة فهمست مشدوهة.

- إنه يبول.!!!

قام الطفل، مدت الأم يدها ومسحت عن مؤخرته القذارة ثم طفقت تلبسه، شعرت الفتاة بغثيان مفاجيء، وخرجت من الملجأ نحو الليل والرصاص والموت المجاني المتجول في شوارع المدينة وأزقتها.

الفصل الأول

هناء

- إياك أن تلتفت إلى الخلف.

جاءه صوت الملاك.

- وإن نظرت، فسترى غضب الرب ينزل على المدينة الكافرة.

وراودت الرجل الصالح الخارج من المدن العاصية، رغبة إنسانية فانية أن يفعل ولكن تحذير الرب له حين تراءى له الملاك ليلة أمس وأوحى له قائلاً..

- أخرج من سدوم وعمورية غداً فجراً، فإن غضب الرب قد حل.

جعله يتيقن أن الرب قد وفى بما وعد وأصبحت سدوم رماداً...

لا أعلم لم تذكرت هذه الحكاية الدينية الموروثة وأنا واقفة أمام النافذة أديم النظر —من علٍ - في بيروت المشتعلة، وأفكر مع نفسي... يا ترى أيها الرجل الصالح، هل عاينت سدوم وعمورية ونفسك راضية من أن كل هذا الذي حدث بأمر من الرب عقاباً عن آثام أهلها، ولكن هل يا ترى أيها الصالح أن ما يحدث في بيروت الآن هو من فعل الرب، أناشدك بالرب أن تفصح وأن لا تشيح بوجهك.

ورفعت رأسي –بحزن - أزحت خصلة نافرة من شعري إلى وراء كتفي، كدت أنسى سيكارتي فرشقت نفساً طويلاً عميقاً ثم نفثته بقهر، فراح الدخان يتحلق عابراً أسياخ النافذة مخترقاً الجو الدافئ للغرفة، أنشأت أراقبه وهو يلوب ويتلاشى في زرقة السماء.

– آه.... السماء.

وقذفت السماء بعقب السيكارة فتوقفت في الفضاء لثانية واحدة ثم هوت إلى الشارع.

– وأنت أيتها السماء، ما أنت؟، أين زرقتك الصافية؟ هل آلفت افتقاد زرقتك البلورية؟ أين هي..؟، إني لا أرى إلاّ الدخان الأبيض، والدخان الرمادي، والدخان الأسود... أراك عذراء مات حبيبها... أراك تابوتاً صامتاً تشذوا منه روائح جيف نتنة، أنت –يا أخية - تابوت كبير وعائل يغطي الناس والأبنية وكل شيء... كل شيء..

– صباح الخير هناء.

أفقت على صوت الطبيب، فأجبته ببرود.

– صباح النور.

وجه الطبيب شاحب، وعيناه متورمتان، لعله قضى ليلته في الملجأ.

– العيش في بيروت أشبه بالعيش في آتون الجحيم.

لم أجد ما أجيبه بشيء، واصلت التحديق في السماء... حقاً أنها تشبه التابوت، وغدوت أصوغ معادلة افتراضية غريبة... فلتكن السماء تابوتاً، من هو الميت؟ بل الموتى إذن...؟، وألقيت نظرة إلى الأسفل... الشوارع جرداء، خالية، ومهجورة كأنها ديار دارسة هجرها الناس منذ قرون، والسيارات واقفة في فوضى عجيبة، بعضها صعدت فوق الرصيف واستظلت بحائط نصف متصدع، وبعضها الآخر لم يجد سائقها الفرصة لكي يوصلها إلى بر الآمان فآثر أن ينجو بجلده تاركاً السيارة لمصيرها المجهول وسط الشارع، ورحت أفكر في مفارقة الزمن... من كان يصدق أن بيروت التي كانت شوارعها الصاخبة تعج بالسيارات، سيارات أنيقة...، حمراء، صفراء، بيضاء، وسوداء... كاديلاك، مرسيدس، بيوك، فالفو، وفورد... بيروت التي كانت أرصفتها تمور بالأجساد المشدودة المتدافعة تحت أضواء النيون، بيروت الليل الفردوسي، ملاذ الذين لم يألفوا النوم مبكرين، بيروت شارع الحمراء، والجبل، والشاليه، تصبح ثكلى، حزينة، تبكي شوارعها وأرصفتها وليلها وناسها، إن بيروت أمست جثة تذروا الرياح العاصفة رائحتها النتنة، فالسماء إذن كانت النعش، وبيروت هي الجثة...

- بم تفكرين هناء؟
- أتأمل بيروت.
- بيروت أضحت اسماً في صفحة منسية من كتاب التاريخ.

واستطرد معجباً بتشبيهاته.

- بيروت هي روما، ولكن أين نيرون؟

ثم تمطى مفرقعاً عظامه وهمس بكسل..

- رغبتي للنوم لا تقاوم..

سألته بآلية.

- ألم تنم أمس..؟

قال بتذمر شديد..

- في الملجأ.

ثم أشعل سيكارة ومجّ منها نفساً عميقاً وأكمل.

- كالعادة.

الملجأ... الأزقة المظلمة، الشوارع الخلفية، البيوت المسّورة بالعتمة والعفونة، هل كنت تفكر بهذا أيها الطبيب الناعس أبداً في الأيام الخوالي، أيام كانت الشمس تشرق على أجسادكم المخملية على امتداد الساحل، أيام كانت الحياة بالنسبة إليكم تتكون من مربع أضلاعه، السهر حتى الفجر، السفر إلى أوروبا، جمع الثروة، و... الليالي الحمراء والزرقاء والوردية،... أنا شخصياً لا زلت أتذكر أن هذه الكلمة (الملجأ) كانت أشبه بمسألة حسابية تحتاج إلى حل... لم أكن أفقه معنى هذه الكلمة المكتوبة بخط رديء على رقعة معدنية أكل جسدها الصدأ، ولم أفكر يوماً في فك اللثام عن المعنى التفصيلي لهذه الكلمة رغم علمي السطحي بأنها تعني

اللجوء، والإنسان لا يلجأ إلاّ عندما يداهمه الخطر، فاستنتجت من هذا التحليل العام المعنى التقريبي لكلمة الملجأ، شكله، محتوياته، جوه، ولكن عقلي الباطني كان يوحي إليّ بأن كل شيء فيه –رغم أنه يطرد شبح الموت - جنائزي، سوداوي، يوحي بالموت والذل...

وجاءني صوت الطبيب جرساً يدق في وادٍ مقفر.

- نومنا رصاص، صحونا رصاص، أكلنا رصاص،..... رصاص، رصاص، كل شيء رصاص.

ثم نفث زفيراً هائجاً واستتلى.

- أن ترى رجلاً مشوه الوجه ملقى على قارعة الطريق فهذا طبيعي، أن ترى امرأة غارقة بالدماء، وطفلاً ممزق الجسد، فهذا طبيعي...

وقال في تسليم عاجز.

- جحيم..

قام من كرسيه، إتجه صوبي ووقف لصقي، طفق ينظر من النافذة، إمتد الشارع أمامه أفعى متلولبة مرقطة، لا تصدر عنها أية نأمة سوى الرصاص وهو يغلّ الجو، وأصوات متقطعة مبهمة وصيحات نافرة مبتورة، همس كمن يكلم نفسه.

- بيروت تنتحر.

همست لنفسي... تنتحر..!!، أنها تقتل أبناءها، بيروت مقبرة كبيرة تفتح فاها للتابوت أن يستقر في أحشائها لكي يكتمل كل شيء، طقس الموت الجميل لكي تشرق الشمس على فراغٍ هائل.

وألقيت نظرة قصيرة إلى وجه الطبيب المذهول المشدود إلى الأشياء المتداعية أمامه، قلت له.

- بيروت غولة خرافية، تلد بغزارة وتأكل أطفالها بغزارة أكبر.

ران صمت قصير، ذابت نظراتي في حنايا البحر المترامي على يميني، البحر هادىء كرجل كسيح ينث بين الفينة والفينة مويجات واهنة تتهشم أمام حسكة صخرة هائلة وتتسرب بين الفجوات المتراصة ثم تكرّ راجعة صافنة مذهولة تحاكي خرس البحر... وصحوت على صوت الطبيب وهو يرطن باعجاب.

- تشبيه جميل.

إبتسمت وأنا أرمق صخرة (الموت) المنتصبة بشموخ فوق البحر.

- إنها الحقيقة.

آه يا صخرة العشاق، يا من عاينت شراذم العشاق الحقيقيين، يا من بكيت البائسين المنسيين الذين يأتونك أفواجاً، يتعانقون فوقك، وتشعرين –لحظتها - بأحشائك تثمر، يا من بكيت عشاقك حد الذوبان والتلاشي، أن بيروت تنتحر يا صخرة الحياة، إنها لا تنتحر عاشقة لإن العشق نضى عنها ثوبه، إنها تأتيك

مكرهة، إنهم يدفعونها للإنتحار، بيروت عذراء مجبولة الظفائر إغتصبها أعداؤها، تناوبوا في اغتصابها، بيروت تنتحر يا صخرة العشق القدسي، فهي –إذن - لن تشعر بالندم حين تقف فوقك وتلقي بجسدها المدنّس في صيرورة المتوسط، بيروت....

– هناء، أراك تكلمين نفسك؟

أرجعني الطبيب إلى صوابي.

– هه، إني متعبة، لم أنم ليلة أمس.

– في الملجأ...؟

وقبل أن أجيبه هتف منذهلاً.

– هناء، أنظري هناك.

ونظرت إلى حيث يشير، كان ثمة رجل يتلوى على الرصيف، يزحف على بطنه، يتوقف، يتهالك منكفئاً على وجهه ثم يرينه صمت وسكون هاديء، إصطدمت نظراتي بفوهة رشاشة ملقاة بجانبه،... آه، أيتها الفوهة، ما أقصر المسافة بين الزناد وبينك، ولكن هذه المسافة كافية لإنهاء مسيرة حياتية طويلة ضاجة بالأشياء والتفصيلات الرائعة، و... البائسة حد الموت، هذه المسافة الحقيرة كافية جداً لإنهاء حياة أناس يبحثون بضراوة عن معنى كون الحياة بتلك المسافة المحصورة بين الزناد والفوهة.

– هناء... أنه في حالة يتوجب علينا مدّ يد المساعدة له.

ولما انسحب الطبيب بسرعة وهو يشد على مخارج الحروف بانفعال واضح عاودت النظر إلى الجسد المسجى باستسلام، يا ترى أيها الرجل الميت - الحي، هل تعرف نجيب؟ نجيب حنا...؟ أتريد التفصيل، نجيب ابن حنا ميخائيل، أمه سارة، لبناني ابن لبناني أباً عن جد عن سلف، يتيم، لم ير أباه، له أخت تسمى هناء، وأم طوتها الذاكرة في أديم النسيان، فدائي منذ نعومة أظفاره، ألم تعرفه أيها الجسد المسجى بصمت على الرصيف الضاج بالرصاص والموت؟ انه من حي كرم الزيتون... ألم تعرفه لحد الآن؟ ماذا تقول؟ تقول تعرفه.... أين هو؟ هل هو حي؟ قل له لماذا لاتزور هناء؟، إنها جد قلقة عليك... أمست جمرة من حطب تنتظر الماء، وأنت يا نجيب هو الماء، هو الخلاص...

- تعال أمير.

وبعد أن قاده الطبيب إلى النافذة، قال بصوت آمر.

- أريد أن تأتوا به حالاً.
- ولكن... الرصاص...؟!.

صاح الطبيب بحدة.

- دون اعتذار، أريد هذا الرجل في الردهة حالاً.

وبعد أن خرج الرجل تأفف الطبيب وهتف باستياء.

- أية مصيبة.

ياترى أين أنت الآن يا نجيب، إني أريد ولو لوهلة خاطفة كالحلم، أريد أن تأتيني وتهمس.

- هناء، ها أنذا.

وتلامس يداك وجهي، وأتحسس كفيك الخشنتين المعروقتين وأتأمل وجهك، أتشمم رائحة حنا ميخائيل فيك، أبي الذي لم تره أبداً، أترى يا ابن أمي وأبي، هل لا زلت تذكر شقيقة لك تعمل ممرضة في مشفى ببيروت اسمها هناء، أم أن أوار الحرب قد أنستك كل شي.

و أيقظتني أصوات خطوات خلف الباب فقضمت شفتي بقهر وهمست بخوف.

- إنكشفتي يا مسكينة..

ولما تلصلصت - والقلب يسابق نفسه — نحو باب الغرفة برق في ذهني خاطر... ما جدوى البقاء هنا، هل أستطيع أن أفعل شئ لهم، كلا بالتأكيد، كيف أقدر والأعداء يستوطنون الممرات والغرف منذ يومين، حتى النفوس التي نذرت نفسها للانسانية من الأطباء والعاملين، صارت تحت حد الموس، فلاذت بالصمت والخضوع.... وعندما أمسكت بمقبض الباب وفتحته بحذر، همست.

- الحمدلله، لم يسمعني أحد.

ولما ساورني الاطمئنان واستدرت ماشية نحو النافذة ارتسمت أمامي الصورة...

[بعدما احتلو الردهات طفقوا يفتشون الأسرّة ، وفجأة صاح أحدهم.

- وجدت واحداً منهم.

وبعد دقيقة كان الكهل جثة هامدة...]

خطوت واحدة أخرى ولكن الصورة الثانية المؤثرة أبت إلاّ أن تتوحد بالذاكرة.

[ورقص الثاني فرحاً...

- ها هو جريح ثانٍ.

قال الذي بجانبه.

- إنه أعمى.

وقبل أن تصل الشفرة الحادة وتلامس تفاحة آدم، هتف أحدهم.

- تريث يارفيق، لدي فكرة رائعة!.

كنت في تلك اللحظة مشحونة الأعصاب حد الصعق، أردت أن أصرخ.

- كفى باالله عليكم، إنهم جرحى.

ولكني أحجمت حين فكرت بعاقبة هذا...، وفغرت فاهي حين وجدت أحدهم يحمل طبقاً من القذارة ويقدمه إلى الجريح ويقول.

- كُلْ أيها العجل حتى تسمن وتصبح قادراً على حمل السلاح بوجوهنا ثانية.

تناول الطبق وقربه من أنفه بصمت مقهور، جمدت كل أسارير وجهه وارتفع حاجباه مأخوذين بالمفاجأة همست لنفسي.

- **أين أنت ياشياطين الكون، أين أنت يا هتلر، أناشدك الآن أن تخرج من قبرك وتنظر إلى هذه الطريقة، ثم أسألك هل فكرت يوماً أن تهين الانسانية هكذا.**

وأفقت على صوت اطلاقتين، إنتفض الجريح وشهق شهقة طويلة ثم تمايل ووقع على وجهه فيما كان الخروج برائحته الكريهة يصبغ الوجوه الغارقة بالخجل المريع......]

أدركت النافذة فأشرأب عنقي بلهفة وأخذت أتمعن الأسفل.

- إنهم يحملونه على (السدية)، يجب أن أفعل شيئاً، إنها لم تعد محراباً يطرد عن وجوه الجرحى سطوة الموت، بل أصبحت مجزرة تحّز فيها رقاب أبناء الأرض المسبية، وويل لهذا الرجل إن كان فلسطينياً، وإن كان كذلك فأتمنى من كل قلبي أن يكون مقضياً في خضم هذا السبيل من الرصاص، لا أن يموت في غرفة أنيقة تحت أضواء الكهرباء الحليبية وفوق فراش نظيف أبيض.

❖❖❖

الردهة يلفها صمت أخرس وفضاؤها يردد صدى خطواتي العجلى، إستقصيت في ذهني علامة فارقة أستطيع أن أميّزه فيها، كان البعد شاسعاً ولكني تمكنت - حينها – أن أتبين بقعة كبيرة من الدم تبلل القميص الأبيض، آه.. القميص الأبيض...؟!.

الأسرّة متراصة، والردهة خالية تماماً من العاملين.

- إنها فرصة نادرة.

تفحصت الوجوه المتناثرة بنظرة خاطفة، بعضها ألفتها، لم أعرها أي انتباه، لا يوجد أثر له... وقفت في منتصف الردهة حائرة، وشعرت بشيء ما، بارداً كالثلج يسقط بين ضلوعي أحسست على أثرها بحزن هائل.

- أخت هناء... إن كنت تبحثين عن الوافد الجديد، فهو هناك في زاوية الردهة.

نظرت إلى المريض شاكرة ثم قذفت عينين مسعورتين حيث أشار.

- إنه ملفوف ببطانية.

وبخطوات قليلة كنت بجانبه، تسللت نظراتي إلى الأسرّة، كلّهم نيام عدا الذي كلمني، ففي عينيه وجدت بحوراً من الرجاء والضراعة، همست لنفسي.

- سأنقذه أياً كان، لا تيأس.

مددت أصابعي إلى جيوبه واصطدمت نظراتي ببقعة دم واسعة على قميص أبيض.

- إنه بعينه.

لم أحظ بشيء من جيب قميصه فعمدت إلى تفتيش بنطاله، لم أظفر أيضاً، ولما فتشت قميصه الداخلي وجدت جيباً مخفياً في عضده الأيمن، إنفرجت أسارير وجهي عندما لامست أصابعي طرف الهوية فسحبتها بسرعة ودسستها بسرعة خاطفة بين ثدييّ.

❖ ❖ ❖

في الغرفة وحدي، قرأت.

الاسم: زكريا سليمان ابراهيم

مواليد: دير ياسين ١٩٤٢

صنف الدم: (٥ -)

الاسم الثوري (الحركي): ثائر

همست بفرح

- فلسطيني.

ولم يكن الوقت يحتاج إلى تفكير عميق، فعود ثقاب وعلبة كبريت كفيلة بجعل هذا الرجل لغزاً .

❖ ❖ ❖

الفصل الثاني

ثائر

الصحو

صمت صلد يلبسني ويشد خلاياي بضراوة، وتيار يسري في عروقي، ترتد اليّ حواسي، أتحسس المكان بعينين لا تبصران، عيناي أحس بهما مكبلتين، مربوطتين بخيط فولاذي وأصوات مبهمة تدخل فتحة آذاني المهجورة الدارسة... العتمة كل عالمي، عتمة غامضة وذهني لم يستطع لحد الآن أن يصفى ويجد تفسيراً مقنعاً للأسئلة الحائرة... لم أنا هكذا؟ ماذا حدث؟ ولم أنا هنا؟ وأين أنا..؟ هل انتقلت إلى عالم آخر...؟ ضبابي، سرابي لا يكتنفه سوى ظلام محلولك، أم...؟ ووخزة من النار لدغتني في صدري تماوجت وشملت كل أجزائي المشلولة، صرخت بألم قاتل.

- آه... ...آ...ه ...

صوت كالحلم أحسسته يزيح الصدأ عن أذنيّ، جميل، ناعم، فرح، جاءني.. من أين..؟ هل هو خارج العتمة التي تصفدني أم من الوهم؟

- إنه يصحو.

رّن الصوت في أرجاء الجو، هل ثمة جو ما؟ إني لا أرى أمامي سوى جبالاً من الغلسة، تعاظم الصوت واختلط في رأسي.

- إنه يصحو..؟ مم يصحو؟ ها أنا نائم؟ ربما... ولكن أين؟ إن ذاكرتي لا تسعفني بشيء، والأهم ماذا حدث؟ أين كنت قبل الآن؟ لأحاول أن أفتح عينيّ، الألم ممض قاتل، تمتد يداي بطيئة حذرة تتحسس الأشياء تحتي، تلامس شيئاً ناعماً، متعرجاً مطواعاً، يداهمني الألم سفاحاً، أصرخ.
- آه... آه..!

أقبض على أطرافه بشدة، يتطاوع مستسلماً مرغماً منطوياً داخل كفي، أهمس.

- إنه فراش.

فراش! لِمَ أنا نائم؟ لِمَ أيتها الذاكرة؟ وما هو هذا الألم القاتل في صدري؟ فراش، إنه يصحو، جو صامت، صوت ارتطام زجاج بعيد، أصوات غامضة متفجرة..... ما معنى كل هذا...؟ وفي لحظة كالمستحيل انفتحت مقلتا عيناي، سوّرني جو ضبابي وألقاني في بيداء يلّفها سراب عائم ورويداً رويداً تداعت الأشياء في حدقتي وتحددت المعالم ببطء.

في البدء هلامية غير محددة ثم متعرجة كأنعكاس الأجسام في ماء غير ساكن، بعدها توضحت تدريجياً... سقف طويل لا نهاية له، وجوه متعبة ترقد بأستكانة فوق الشراشف، ووجه فتاة منكب يتأمل وجهي، إنفرجت أساريرها وافتر ثغرها عن ابتسامة يافعة، تألقت عيناها ونبرت.

- الحمدلله على سلامتك.

أتفحص الوجه... أبيض، شعر أشقر منسدل، عينان زرقاوان، وابتسامة حانية...، من هي هذه الفتاة، وعلى سلامة من؟ سلامتي! هل أنا مريض؟، جريح؟، من أنقذني؟، أين كنت قبل أن أجد نفسي ممدداً على هذا السرير الأنيق، وهذه القاعة الساطعة بالأضواء، وهذه الأنثى الجميلة التي لاتكف عن الابتسام؟، همست لها بتوجع.

- صدري يصطلي بالألم.

وأكزّ عن لساني، تهرب أمواج الألم نحو عالم خفي مجهول، أهمس.

- من أنت؟.. وأين أنا..؟.

وقبل أن ترد أشعر بألم ممض في صدغي ثم انقشعت السحابة، فهتفت وأناملي تزحف نازلة من الجبين إلى العينين.

- آه.. تذكرت..!

[- منير أذهب الى الموضع ونم قليلاً.

أجابني منير باحتجاج.

- أنت الذي تنام وليس أنا.

ثم استتلى.

- ليومين متتاليين لم تنم يا ثائر.

النوم؟ ماهو النوم؟ أهو الخلاص الأبدي؟ أهو الهرب إلى فردوس كل شيء فيه جميل. الأشجار، السماء، الجداول، والشحارير... أهو التحليق في طوق دائرة يرتديها صمت أبدي،.... أجبته.

- لا بأس يا صديقي... يبدو أن النوم قد خاصمني إلى الأبد.

نظر منير عبر فجوة المتراس إلى الشارع وقال دون أن يلتفت.

- إنه موت بطيء.

وهل ينقذنا النوم من الموت؟، وهل ثمة فرق بين الموت بلمحة سقوط الشهب، وموت يتطاول إلى قرن...؟، إنه في الحالتين موت واحد، وما النوم إلاّ موتاً، بل أشمل من الموت نفسه بمفهومه التقليدي، في النوم نفقد الحواس كلها، نصبح مومياء في متحف مهجور، لكن هذا الموت– النوم، القصير الأمد سرعان ما ينهزم ويترك الفرصة للحواس بالدخول إلى مملكة الجسد ثانية، قلت في حزم.

- سأبقى في المتراس.

ثم قلت له بحنان.

- نم أنت.

تلاحقت الإطلاقات قريبة جداً، انشغلنا بالمراقبة، وفي إلتفاتة خاطفة نحو المتراس الذي يجاورنا، أبصرت أحد الرفاق منكفئاً

على بطنه وقد همدت في جسده الحركة فتسلقته بنظرات آسفة، وحالما وقعت عيناي عليه حتى ندت عني صرخة.

- **كمال أبو الزمن!!!.**

وأبصرت منير يزحف إليه ثم يقلبه على ظهره، ألصق أذنه ببطنه وأنشأ يتنصت، تدلهم وجه منير فابتهلت بضراعة.

- **لا تفعلها يا أبا الزمن..**

وبكّر اللحظات توهجت عينا منير وانطبعت على شفتيه ابتسامة مشرقة وأومأ بأبهامه، إنفتحت كوّة واسعة في قلبي وتسللت أشعة الراحة إلى طواره فرفعت إبهامي إليه ثم أنشأت أراقبه وهو يحمل أبا الزمن نحو الموضع.]

يقترب وجه مني حد الالتصاق، أخاله يسقط على وجهي، أحس بأنفاسه تلفح وجهي، يعوي الألم في صدري فأتحشرج.

- إني أموت!..... الألم يقتلني.

وميض العيون الزرق لا يشعرني بالأمان، أتمثلها كقارب صغير يتراءى لي عن قرب وأنا أجاهد أمواج اليم المائجة، رددت بذهول وأنا أمسح الوجه الأنثوي بعينيّ.

- كم هي كثيرة الشبه بمريم!!!.

[- مريم، أختي، لا..... لا يا مريم.

ويتوسد رأس مريم ذراعيّ وتشهق....]

لو لم ترحل مريم لخلتها هي بلحمها ودمها. نظرت إلى الوجه ثانية وهمست.

- لِمَ أنا هنا؟

تنفرج شفتاها عن أسنان بيضاء نضيدة وتبتسم بحنان.

- كادت إصابتك تودي بحياتك.

أنذهل... يتوقف صدري عن الهبوط والصعود، يتأجج الألم في ضلوعي، أتحسس بأناملي ثم أقذف نظرة مذعورة متلهفة.... نصفي العلوي عار وثمة لفائف بيضاء تغطي نصف صدري الأيمن، ومن بين اللفائف ينبثق أنبوب بلاستيكي طرفه العلوي منغرز بين الضلوع والثاني ينتهي عند قوائم السرير بقنينة مليئة حتى منتصفها بدم أسود متخثر.

- إصابتي...!؟.

[لقد اصبحت وحدي الآن متقرفصاً وراء متراسي، أرقب من خلال الفتحة أشياء الشارع، خالٍ تماماً والسماء تمطر ناراً ودخاناً، والرصاص معتوه يتجول بين الطرقات في حالة هستيريا قاتلة، وحدي الآن ومنير غاب في الموضع وطالت غيبته، يتحتم عليّ أن أكون يقظاً. أرمق الشارع ثانية، الانفجارات لغة الوجود، والرصاص وسيلة التندر، وأنا متكيء على كيس من الرمل وسبابتي على الزناد.... لِمَ تأخرت يامنير؟، هل حدث خطب ما؟، هل عرقلك قناص؟، ماذا حدث لأبي الزمن؟، ألا يزال بصحة

جيدة؟، هل حالته خطرة؟ أأوصلته إلى الإسعاف الطبي؟، لِمَ يا منير...؟، إني انتظرك على أحرّ من الجمر. يزخ الرصاص فأنظر عبر الفتحة، أضع ماسورة الرشاش في الفتحة، أتكئ جيدا وسبابتي على الزناد، وحين ألقيت نظرة إنعقد لساني وتجمدت كل حواسي، إذ ابصرت طفلاً وكأن الارض انشقت ولفظته وسط الشارع، كان يحبو عاري الساقين... يتوقف قليلاً ويستند بساعديه اللدنين على ازفلت الشارع، يرفع رأسه ويحدق في السماء، ماذا أفعل يا ربي؟، أين أنت يا منير؟، إنه طفل، طفل لا يعرف معنى الحرب، لا يعرف ما الموت، سيموت..... يموت كما مات عماد، لازلت أذكر يا منير صرخته السرمدية وهو يتلوى بين قدمي المجندة.

- شيطان دير ياسين... خلصني يا زكريا.... ز....ك....

سيموت كما مات عماد الطفل، بل أبشع من ميتة عماد، أتدري يا منير من قتل عماد؟، قتلته امرأة، ذبحته من الجلد حتى الجلد، هلم يا منير إحضر..... إني أرى... أرى المصفحة قادمة والطفل لما يزل يحبو، ساغادر المتراس يامنير، وسأعبر البنيان المتصدع، وليكشفوا الموقع، إلى جهنم..... ليقذفوا كل قنابل العالم داخل البناية، فأنا لن ألوي على ما انتويت ... ليقتلوني ويقطعوني شريحة شريحة، ليفعلوا أي شئ... ليصوّب القناص إلى صدري أو إلى رأسي ويحصدني، لايهم... سنبدل الموضع.... ها هي ذي المصفحة قادمة، سأنقذه يا منير. سأمهلك دقيقة واحدة حسب،

إن لم تأت خلالها سأخرج من المتراس وليكتشفوه، لا تدري يا منير ما معنى أن يُقتل طفل، عماد الطفل سرمدي يعيش في هذا الرأس، مرت نصف دقيقة يا منير، لم لا تأتي يامنير؟ مجيئك ينقذ طفلاً اياً كان.... بقيت خمس ثوان، إنتهت الدقيقة يا منير، ها هي المصفحة قادمة كحيوان أهوج وها هو الطفل يغرق في نشيج عميق من البكاء .....]

- هل صحا...؟.
- إنه في طريقه.

وجه الفتاة يبتسم، همست لنفسي.

- هل خُلقت هذه الفتاة للابتسام؟

فوجئت بوجود شخص ما يرتدي صدرية بيضاء، ومن رقبته تتدلى سماعة، فأيقنت أنه دكتور، إعتدل ووضع السماعة على صدري وانشأ ينصت بأهتمام، ثم كشفا عن ذراعي، هو والفتاة، وطفقوا يلفوها، ،شعرت بتوتر وبدم يدي ينحبس ثم أخذا ينظران إلى مقياس ضغط الدم، وبعد أن انتهيا، رمقني بنظرة خاطفة وابتسم قائلاً.

- كيف تشعر؟
- الحمدلله ، ولكن الجرح يؤلمني .
- لا بأس، سيزول بالتدريج .

همست بهدوء.

- شكراً.

وفجأة، وبدون أية مقدمة سألني.

- ما اسمك؟

لم اجد جواباً، أسبلت جفني وفكرت... هل أقول لهما عن اسمي، هل أقول لهما... ثائر من فلسطين، جرح قبل ساعات، أيام، لا أدري... إستيقظ ليجد نفسه في ردهة ووجه فتاة يبتسم دوماً، هل يترتب عن ذلك اشياء ورّد فعل مفاجئ؟ هل أبوح بالاسم المجرد فحسب؟ أخشى أن يكون المستشفى الذي احتلوه، لن أفصح لهم عن كينونتي، وبغتة تذكرت شيئاً مهماً، فقذفت جسدي العاري بنظرة وهمست بخوف.

- المعطف...؟

ثم بخوف أشد.

- الهوية....؟!.

وحدقت فيهما ببلاهة، إنكفأت على جنبي وفكرت ... لقد انكشفت يازكريا، إن كان هو المستشفى ذاك فألف سلام على روحك، ولكن أحدهم يعرف بالتأكيد من أنت، ومن المؤكد أيضاً أنه لم يظهرها لهم لغرض في نفسه، ولكن ما هو غرضه... ما هو...؟،،، واعتدلت على ظهري ونظرت إليهما بصمت.

قال الدكتور.

- يبدو أن تأثير المخدر لم يبرحه تماماً.

وامتدت أنامله تدوّن ملاحظات طبية في ورقة مثبتة أعلى رأسي ثم قال.

- أنقلوه إلى الغرفة ٢١٣.

ثم إلى الفتاة.

- إقطعي المغذي عنه يا هناء، وتابعي مراقبة أنبوبة الصدر.

هناء... إسمها هناء، إن هناء يذّكرني بشئ ما، بالتأكيد أن هذا الأسم مر في خاطري، أو سمعته... ولكن أين؟... ومتى؟، محتمل إني التقيته مرة، ولكن لا!... وبرق في رأسي خاطر.... الهوية، أين الهوية؟، من وجدها يا ترى؟، ولِمَ أخذها؟

[ها هو الطفل يغرق في نشيج من البكاء، لقد قررت يا منير ووحدي أتحمل النتيجة، لا أنكر أني في مشكلة مزدوجة، ممارسة الانسانية المتمثلة في انقاذ هذا الطفل، الطفل عامر، حسين الطفل، الطفل الطفل. من براثن هذه المصفحة، من جهة... والالتزام بالأوامر التي تلزم علينا الترابط في هذا المتراس وعدم تخطي البناية لأي سبب، لأن انكشافنا يؤدي إلى خلق ثغرة يستطيع منها الأعداء الدخول إلى هذه الجهة من المدينة وتتكرر مأساة دير ياسين ثانية، أين أنت ياصديقي يا منير..... وجودك ينقذ طفلاً بريئاً من المصفحة، إنها من الأعداء، أرى شعارهم في مقدمتها، لأشاغلها عسى ولعل..... أطلقت واحدة، إثنين، ثلاث، عشر اطلاقات، ولكن المسافة بينها وبين الطفل تقترب، غلى الدم في عروقي، وأخذت أوصالي ترتجف، الطفل ينظر إلى المصفحة

باندهاش، غطى هدير محركها نحيب الطفل..... سأخرج لانقاذة مهما ترتب عن فعلي من مخاطر، أزحف على بطني، أحس بتخدش في جلدة بطني، الأرض غير سوية، دغدغة تسري في أوصالي، أشخص كل حواسي نحو النقطة المتحركة الصغيرة في إزفلت الشارع، حسناً، أصبحت الآن على حافة الرصيف، ما عليّ إلاّ أن أقفز بسرعة وأخطفه ثم أهرب به إلى عطفة ذلك الزقاق.

- أز...... أز...... ز...... ز.

وانهال الرصاص عليّ، الآن أصبحت في أعسر امتحان، مستهدف ومكشوف، يجب أن أنفذ كل شيء بسرعة، قمت من مكاني وقفزت قفزة هائلة، ولكن وأنا أحلّق في المسافة القصيرة المحصورة بين الطفل والرصيف صرخت.

- أي.

ممّضة إنطلقت من فمي وتهالكت على الشارع فتهيأ لي أن الطفل في حضني.... كان ثمة شيء حار يدفئ حناياي، وصوت كخرير الشلالات يناغي أذنيّ.

- أسكت يا طفلي الحبيب، أنت الآن في أمان.

دارت المعالم في عينيّ، انكفأت على ظهري، عيناي.... أه... ما بهما؟، لا أستطيع فتحهما، أصرخ.

- الطفل... عماد... حسين... عامر...

الدفء يتسرب من صدري ويغمر أنحاء جسدي، لاشيء سوى العتمة، وصرخة نزقة فزعة قصيرة، كركرة ناعمة، صمت أبدي... هدير محرك، الأزيز... المصفحة.

- **نم يا عزيزي، نم على كتفي، لن أتركك يا عماد...**

أمسد شعره، أقبلّه ، شئ حار ومالح يغور إلى حلقي. أستمرئه وأهمس.

- **نم.. نم... يا طفلي ...!**

الوجه محبب، ملائكي، رغبة لا تردع تدفعني إلى التوحد به، يقول الوجه برقة.

- عليك أن تنام الآن.
- في أي مستشفى أنا..؟.

صمت الوجه وكسته مسحة حزن شفيفة واختفى ومض العيون تحت غلاله داكنة من الأهداب، وهمست.

- في مستشفى (.....).

صدق حدسي، ياللمهزلة يا زكريا، في نفس المستشفى الذي خمنت، أردت أن أناشدها بأن تخرجني منه وتطلق حال سبيلي لأواجه قدري حسبما أريد.

- كنت في حالة ميؤوس منها.
- كيف وجدتموني؟

إبتسم الوجه وقال.

- رآك الطبيب في البدء، توّسم فيك الحياة، كنت في حالة إغماء.

همست لنفسي بحزن فاجع.

- أين الطفل؟ أيمكن أن يكون قد حبا ثانية نحو الشارع بعد أن فقدت وعيي.

ثم سألتها.

- ألم تجدي طفلاً على ذراعي؟

وبعد وقفة.

- أو على الشارع؟

أجاب الوجه بتردد حزين.

- لم يكن ثمة أحد سواك.

إشتعل صدغي وهمست بصوت يحترق.

- دهسوه..... الأعداء.

ضاقت عينا الوجه، صرفت على أسناني، إنها النهاية... أغمضت عينيّ على صورة موتي في هذا المكان الأنيق، أه ... أيها اللسان، لقد سبق السيف العذل، وصممت على شئ، قفزت من الفراش، صرخت بتوجع إذ أزَّ الألم في صدري، وماجت الأشياء من حولي، أخذ وجه الفتاة يتقولب، يستدير، يستطيل، يتخذ أشكالاً مرعبة، تهالكت

على السرير وأنا أضع يداً ترتجف على اللفائف، أحسست وجيب قلبي المتسارع وتملكني إحساس حاسم بالنهاية، بيد أن جميع حواسي انشلت حين التقطت أذناي نبرات هناء.

- لا تخشى شيئاً ياثائر.

صرخت مذهولاً.

- الهوية!!!!؟؟؟.

أجاب الوجه بثقة.

- أجل!... لقد أحرقتها.

ولاحظت الخدين يحمران، والعينين تتوسعان، والشفتين تهمسان بحزن.

- كيف لا أحرقها... كيف لا أنقذك، وأنت رفيقه.

حاولت أن أوضح وأستوضح ولكنها حسمت الموضوع تماماً حين وضعت أناملها على فمي وقالت بود.

- أرجوك يا ثائر... إلزم الهدوء فسّرك موضعه قلبي.

سورّتني لحظة نقية كماء العيون وهمست مبتسماً.

- أين أنا يا هناء؟

إبتسمت الدنيا على أعتاب شفتيها الورديتين، ثم قالت.

- في الغرفة ٢١٣.

الهذيان

مابين الدقة الثانية والثامنة لرقاص الساعة المستكينة على الحائط الشمالي للغرفة، تنافر الالم وتعملق في ضلوعي، حاولت أن أشكمه بعضّ الوسادة ولكن دون جدوى، إنطبعت على حين غرة أمام مقلتيّ صورة.

[طفل يحبو وسط الشارع]

أنظر نحو مؤشر الساعة.

- الثانية عشر ليلاً.

[لا تفعلها يا أبا الزمن]

أغمض عينيّ، بيد أن الصور المتتالية تتعملق في رأسي.

[دعسته المصفحة.... تباً]

أتصلب، أتلوى، أحاول بأية وسيلة أن أتفادى أمواج الألم، أنقلب على جهتي اليسرى.

[لقد سبق السيف العذل]

الألم يزأر، أمد يدي محاولاً تحسس موضعه، الغرفة صامتة تبحر في ضوء بلون الجرح وثمة أصوات مبهمة آتية من ظلفة النافذة المفتوحة.

[نم ياعزيزى، نم على كتفي، لن أتركك ياعماد]

أحس بحركة خفيفة خلفي، وبيد تمتد إلى الشرشف وتزيحه، أحاول أن أرتكز على راحتي يديّ وأرفع رأسي.

- إنها النهاية.

صوت خفي في داخلي يصرخ.

(إنها البداية)

أضع مرفقي على السرير، وأباعد بين وجهي وبينه.

(كانت تخدعك)

أحاول أن ألتفت.

(شاغلتك حتى دبرت نهايتك)

يأتيني صوتها، صوت هناء، من خلفي هادئاً، رزيناً، ورقيقاً.

- إمكث كما أنت.

(لكي تقتلك بصمت)

تنفلت أنّة قصيرة من فمي.

- أخ...

أحس بلسعة حارقة في عجيزتي.

(قتل أنيق برجوازي)

يتصبب العرق من جبيني، يأتيني صوت هناء.

- بعد دقائق ستنام.

ألتفت إليها.

- إنها تبتسم.

الصوت الداخلي ينقلب على قفاه ضاحكاً.

(الموت المبتسم)

تصطدم عيناي بعينيها، ترتجف شفتاي فأهمس بصوت متقطع.

- ما أرخص الموت في غرفة أنيقة وتحت فراش دافئ.

يبتسم الوجه الحلو ويهمس.

- من قال أنك تموت...؟

أعشت عينيّ حزمة من خيوط داكنة، أحسست بمرارة في أحشائي وبرغبة ملحّة للتقيؤ، شعرت برأسي يتطامن ويكبر حتى يغطي سماء الغرفة وتفصيلاتها ابتداءاً بالمروحة والمصباح الحريري وانتهاءاً بالنافذة والسرير.

- إنها النهاية.

أمسكت بذراع هناء ورفعت رأسي عن الوسادة ونظرت بيأس.

- لي رجاء واحد قبل أن أموت.

[- مريم... لا... لا يا مريم.

ويتوسد رأس مريم ذراعي وتشهق شهقة قصيرة]

– قبل أن اموت، وهي أن تلقيني.

[- ماذا حدث يا أماه؟

أجابتني أمي.

- **يا زكريا يا بني، إن دير ياسين تُفنى عن بكرة أبيها.**
- **لماذا تبكين يا أماه...؟**
- **لا زلت صغيراً يا بني]**
- تلقيني من النافذة.

[- سعد..

.... عندما تجمند في مكانه والتوى جسده واستدار صوبي، كان الدم يزخ بغزارة من ثقب أسود....]

- من النافذة إلى الشارع.

[- ما لي أراه لا يتكلم؟

وألقيت نظرة إلى الفأس الملقى بجانب أبي المستلقي بصمت على تراب الطريق.

- **لا يا سليمان، لا تفعلها، لا تمت يا سليمان.**

وكانت أمي تهيل التراب على رأسها...]

- إلى الشارع، حتى أموت كما ينبغي.

يتراءى لي الصوت الخفي الكامن في داخلي وهو يغمز بعينيه ويقول.

(لن يتحقق هذا ابداً)

جائني صوت هناء رقيقاً به مزحة من حزن شفيف.

- إنه يهذي.

وبعد هنيهة.

- مسكين.

مسكين! أنا لست مسكيناً، أنا قطّ بسبعة أرواح، عامر الطفل شيعته بعيني هاتين وهو يُنحر كالحمل، أبو الزمن توسد الأرض بصمت أمامي، الطفل فقد من يدي وربما داسته المصفحة، الكل ماتوا، إلاّ أنا بقيت أعيش إلى أن أصبحت في قبضة أعدائي، لا.. لست مسكيناً، بل أنا قطّ، شيطان، أنا...

- هلمي يا هناء إفعلي ما أقول.

الصوت الخفي يهدر.

(مستحيل، لن تفعلها أبداً)

وجه هناء أراه - الآن – مختفياً وراء ستارة شفيفة، ألمحه هلامياً متكسراً .

- إهدأ يا ثائر..

- أتراها فلسطسنية...؟، أتراها مريم...؟، أجل أنها هي... تعالي يا مريم، أعطني يدك.

أتلمس اليد التي تمتد – أقبلّها بحنو ومحبة – ألهج.

- سامحيني يا مريم.

ألثم اليد وأرفع رأسي إلى الوجه وأبحلق في قسماته بدهشة وأتمم بخشوع.

- اذن لم تموتي، أين كنت يا أخية؟ تعالي هنا، إجلسي عند وجهي وحدثيني.

الوجه يغيب عني، أصرخ.

- مريم... أين ذهبت؟

ثم يعود ضبابياً، أهمس بتوسل.

- لا تتركيني يا مريم.
- لن أذهب يا أخي.

أجل أنها مريم بلحمها ودمها،... يصرخ الصوت الخفي.

(إنها ليست مريم)

أصرخ بوجهه.

- بل هي مريم.

أحس بسحابة قاتمة تغلف رؤاي، أرى الوجه يضحك، يحمل أشيائه، يقف عند وجهي ويقول.

(وداعاً)

ثم يلّفني ليل دامس، معتم، غلس،... ثم لا شئ، خواء، فراغ، لا .....

الحلم

كانت السماء تمطر ناراً تهوي كالشهب فتحيل الأرض قطعة متأججة من جمر متوقد، وبغتة قذفت السماء فارساً يمتطي فرساً شهباء ينز من عينيها ضياء بارق، وهبطت نحو الساحل... نظرت وأنا واقف على حافة البحر نحوه، إن وجهه ليس بغريب عني، فكرت... أين ياترى؟، إغبرّ الساحل تحت سنابك الفرس، طرطش الماء متصاعداً نحو عرف الفرس التي زنخرت ورفعت رأسها بحركة حرون نافضة قطرات الماء العالقة على جسدها، ترجل الفارس وانتصب واقفاً بخيلاء وتفحص الساحل، غامت عيناه وازبد فمه حين لمحني..

هو: يتقدم بثبات.

أنا: أتقهقر نحو ساحل البحر وأخوض في زبد المد.

هو: يصبح على بعد خطوات مني.

أنا: أعوم في الماء.

هو: "بإعجوبة" يمشي بخطوات ثابتة فوق سطح الماء.

أنا: تعجز رفسات رجليّ في الابتعاد عنه.

وبقفزة واحدة سقط ظله على وجهي المبلول، رمقته بنظرة مستوفزة خائفة، لقد انمحى الضياء الذي كان يشّع من وجهه

البيضوى وحلّ مكانه احمرار قاتم ، تمتد كفاه المزهرتان بالعروق النافرة وتقبضان على رقبتي، يصرخ.

- لِمَ قتلتني يا زكريا..؟.

ألهث مختنقاً وألهج بصوت راجف.

- من أنت..؟
- ألا تعرفني يا ابن سليمان؟

صدري ينكمش، يغدو خلية محتضرة، أهتف ملئ حنجرتي.

- لا.

قال بتصميم واثق.

- وسعد، أنسيته...؟

هنا فقط، أحسست أنني أموت مرتين، مرة إختناقاً، ومرة رعباً.

- لا تقتلني يا سعد، إني بريء... لم أقتلك يا سعد، برئ...

❖ ❖ ❖

- سعد، برئ، لا تقتلني برئ، برئ.

أحس – وأنا في لهب الحلم – بشئ بارد يلامس عضدي العاري، وصوت رخيم كأنه مرسل من سماء قدسية يأتيني، كحفيف الاشجار، كأغنية ملاك مبتل بالحب...

- ثائر... ثائر...

تنفتح عيناي، أه... هناء،، أين الفارس؟ أتلمس عنقي بلهفة، أين البحر؟ لم أمت اذن؟ لقد تلاشى سعد مثل السراب... تنهدت بارتياح وأمعنت النظر في وجه هناء وأسرت..

- كان كابوساً.

وجه هناء متورد.. ما بها؟ لا بد أنها تفكر بشئ يثقل كاهلها، ربما هذيت، تريد أن تكلمني، إني ألمح علامة استفهام كبيرة، جائني صوتها.

- من هو سعد؟.. ومم أنت بريء؟

[سعد، لم يكن سوى رفيقي، نقاتل سوية، نأكل سوية، ننام سوية في موضع واحد، ونقوم بالمهمات سوية كتوأمين لاينفصمان ابداً، وكان ثمة خيط غير مرئي يربطنا بأصرة لا تنفك ذراتها المتماسكة ابداً – هكذا كان يتهياء لي – حتى أتى اليوم الذي وضع نقطة البداية لالامي، كانت المهمة في ميناء (....)، كانت القيادة قد تسلمت بلاغاً بأن سفينة محملة بأسلحة ستفرغ حمولتها في الميناء فقد تطوعنا أنا وسعد بتفجيرها، وكانت الخطة التي رسمت أن يتسلل سعد – لخفة جسمه وحركاته – نحو رصيف الميناء ويلغم السفينة على أن أحميه من أي طارئ أو مصادفة يدبرها لنا القدر... واقتربت الليلة المنشودة وأزفت الساعة... كان رصيف الميناء فارغاً ألاّ من أربعة أو خمسة مسلحين مستلقين قرب السفينة على الرصيف، لم يكن يبدو عليهم النوم إذ أن وهج سكائرهم كان يضيء وجوههم بعد كل

رشفة، كانت المسافة بينهم وبين سعد قد تضائلت، توقف سعد عن الزحف وأخرج عدة العمل، ولكن، ... أه من لكن هذه، وألف لعنة على المباغتات غير المتوقعة ومثلما يحدث في فلم بوليسي محكم الحبكة وعندما يريد المخرج أن يضع نهاية ميلودرامية للفيلم، نعم مثلما يحدث في الأفلام السينمائية، عطس سعد، لم يستطع كبح جماحها رغم أنه وضع كفيه على فمه لإخفاء صداها فخرجت قوية مزقت سكون رصيف الميناء، عندها قفز الرجال وأضائوا مصابيحهم الكهربائية وأخذوا يطلقون دون هدى، هتفت بسعد..

- عليك بالرمانات الدفاعية.

وبغتة، أصبح ليل الرصيف نهاراً وأضائوا (البلوجكترات)، تجمهر الرجال وامتلأ الرصيف بالمسلحين، كان بخفة النمر ينتقل من حيز إلى حيز متخذاً من أكداس الأخشاب والبراميل المنتشرة على الرصيف ساتراً له، وحوّل الرصيف خلال أقل من دقيقة إلى نار ودخان كثيف، صرخت به.

- كفى يا سعد... إنسحب.

صرخ بي محتداً.

- لقد سبق السيف العذل، يجب أن افجّر الشحنة.

وكمن مسّه جنون قام من مكمنه وأخذ يطلق الرصاص – بعد أن نفذت رماناته –، لم أدر ماذا أفعل..؟، خرجت من مكمني –

بعد أن حسمت الموقف بيني وبين نفسي -، أخذ فمي يصرخ وفم رشاشتي يزخ الرصاص، ثم... جاء المشهد الذي لن أنساه أبداً، كان قد وصل إلى الرصيف وهو يطلق النار بجنون حتى وصل قرب السفينة، عندما تجمد في مكانه وإلتوى جسده واستدار صوبي، كان الدم ينبثق بغزارة من ثقب أسود في جبينه، وعيناه تلتصقان عبر الظلمة بمآقيّ، إكتشفت فيهما عتاباً رقيقاً كأنه يقول لي.

- **لم لم تشاركني، لو كنا اثنين لربما نفذنا العملية بنجاح..**

إمتدت يداه نحو أذنيه، إستند على ركبتيه والرصاص يخترق جسده. ونظر إلى البحر ثم نظر نحوي ورشقني بنظرة مبتسمة، وأمالَ وجهه ثانية نحو البحر...]

كانت غلة داكنة من الانشداه تقتحم عينيها، تسللت أصابعي دون وعي على الشرشف وبحثت عن أصابعها وهي في كفي باردة، راعشة.... سحبت أصابعي وضممتها على شكل قبضة ملاكم وأخذت ألطم وجهي صارخاً.

- أتمنى الآن لو أن أمي لم تلدني...

نهرتني بصرخة خفيفة.

- ثائر.
- نعم يا سعد، إن رفيقك أحب ذاته في تلك اللحظة.

قالت بنفاذ صبر.

- صه بالله عليك.
- جبان لا يستحق لمسة الحياة الحانية.

خرجت عن طورها وصرخت بي.

- كفى يا مجنون.
- سعد، أنا لا أرجو المسامحة لأني لا أستحقها...

وإلى هنا، إريد وجه هناء فقامت من السرير كالمعتوهة وانهالت علي بصفعات عديدة وأنا لما أزل أصرخ.

- جبان.. جبان..

وهالني أن أرى آثاث الغرفة تستحيل دماً قانياً متوهجاً : - أشعة الشمس المتسللة عبر خصاص النافذة؟، المنضدة، قناني الأدوية، وجه هناء وصدريتها البيضاء.

تفرست بوجهها ملياً، مذهولاً، رشقتني بنظرة لا لون لها، حملقت بكفها غير مصدقة، حاولت أن تنبس بشئ، تلمست مواضع الصفعات على خدي، إنقشعت الغيوم عن عيوني، رأيت هناء تحملق بي بخجل، همست بعتب.

- هناء.!.

أجفلت للحظة وامضة ثم همست.

- أنا آسفة.

ثم، بعد أن بلعت ريقها.

- كانت الطريقة الوحيدة.

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث

الجذور

ثائر

- زكريا، من أنت؟

سألتني هناء، ونظرة حادة وفضولية ترتسم في عينيها.

- أنا زكريا.

(تريد ان تتسلى بك)

إبتسمت وقالت.

- أقصد، من أنت، ومن أين..؟

قاطعتها بخبث.

- أنا هو أنا.

(تمشي نحو جنازتك وكلك غباء)

كنت أقصد مناكدتها، هي تنفعل بسرعة، من النوع النافر، وأنا يعجبني أن أراها مستوفزة حيث يتجلى الجمال في قسمات وجهها أخاذاً رائعاً.

- زكريا، لا تناكدني
- إني لا أناكدك ياهناء، رغم أني أراك فاتنة عندما تنفعلين.

(هو.. هو.. ها، إنه يغازل، الغبي يغازل)

أجابتني بخجل.

- أوه.. زكريا.

(إنها لا تطيقه وهو ملتصق كالخفاش)

قلت لها.

- ماذا تريدين أن تعرفي عني بالضبط؟
- أن أعرفك، أعرف كل شيء عنك.
- كل شيء، أنظري الي، ألا تعرفين بأن اسمي زكريا، واسمي الحركي ثائر، وأني مقاتل أصبت برصاصة ونقلتموني إلى هنا.

صاح الصوت الخفي في داخلي.

(وتريدون قتلي بالطريقة التي تعجبكم)

صرخت به.

- إلى متى تبقى غبياً.

ضحك وهتف.

(لا يوجد على سطح البسيطة من هو أغبى منك، ألم تفهم بعد؟ ماذا تريد أكثر، إنها تريد أن تستقي منك الأسرار وبعد أن يفرغ داخلك يلقون بك مثل ورقة ممزقة قطعاً إلى سلة المهملات)

- ونقلتموني إلى هنا، وعالجتموني، أحرقت الهوية لكي أبقى مجهولاً، لغز لا تفك رموزه وأني الآن أمامك... أتملى وجهك المليح.

قلت بدلال ممزوج بتردد.

- أوه... زكريا.

(لصقة ولصقت)

زجرته صائحاً.

- أغرب عن وجهي.

همست هناء.

- من هو..؟
- لا شيء.. لا شيء ياهناء.

وبعد فترة صمت ليست طويلة، قلت.

- هناء.
- نعم.
- أنت جميلة.

(مجنون)

صعد الدم إلى وجنتيها دفاقاً حاراً، ولكنها قالت مبتسمة.

- أكمل اللعبة.
- أية لعبة؟

قلت بخجل، بيد أنها استطردت.

- ستقول بعد قليل أنك تحبني.

نبرت بصدق.

- غريب!!.

سألت.

- ماذا...؟

- كأنك تقرأين أفكاري.

(وتحسب نفسك ذكياً)

قالت باندفاع مفاجيء وبنبرة دافقة بالحنان.

- زكريا، أمامك واجب ينصهر في دائرة الحب.

فعلاً، أمامك أن تزرع البسمة في الوجوه اليانعة للأطفال المحرومين من كل شيء، يجب أن تحب يا زكريا وبعنف وأخلاص، تحب الارض، تحب الأشجار والاطيار، تحب الانسان أياً كان، نعم يا زكريا، أمامنا أن نحب الحب.

- رائع.

همست لنفسي،... إنها فتاة غير عادية.

(تصفيق حاد، كانت خطبة مليئة بالكلمات الرنانة، لا تفرح يا صاح، انها السم الزعاف في قدح من العسل)

إن انفعالها وطريقة كلامها تذّكرني بانسان أعرفه، قلت.

- هناء، إني آسف على تطفلي.

هتفت مندهشة.

- أتأسف لأنك تحب؟.

ثم استطردت قائلة.

- والآن أَلاَ نبدأ؟
- فيم..؟
- تكلمني عن نفسك.
- للتسلية؟

إربد وجهها بصدق وقالت بحدة.

- مثلك ليس مادة للتسلية يا زكريا.
- ماذا تريدين أن تعرفي بالضبط؟.
- كل شيء... كل شيء.

(لكي تتسلى)

- كفى أيها اللعين.

(ستبقى غبياً إلى آخر لحظة في حياتك)

صرخت به.

- دعني وشأني إذن.

(خائف عليك)

فطمأنته بازدراء.

- لاعليك بي.

لفي صمت مقدس عقب هذا الصخب الأهوج الذي اقتحمني، مر شريط الألم الذي ينخر كياني ((إن شخصة الفرد لها ارتباط صميمي بالضروف التي صنعته وهو طفل)) وارتسمت تدريجياً

الصورة الفاجعة أمامي بكل وضوح، نظرت إلى هناء بعيون كامدة، بدت أمامي كتمثال، كانت تنظر إليّ بحنو عجيب، همست لنفسي.

- أتحبني؟

وأجبت نفسي.

- ريما، ألم تقل قبل قليل أتأسف لأنك تحب، كانت جميلة، لماذا أأنس لهذا الوجه؟ إني أرى فيه ذكريات وصوراً ليست غريبة عني، تذكر أيها الرأس... إن هذا الوجه قد أذهلني وأراحني منذ فتحت عينيّ بعد الحادث، تذكر... لافائدة، إني لا أذكر شيئاً.

وتعملقت الصورة مرة ثانية في عينيّ جلية طافحة بالحياة النابضة بطعم المأساة وظراوة الأحداث وهمست.

- سأكلمك عن فترة صغيرة من حياتي، تستطيعين بواسطتها أن تعرفي كل شيء عني، سأحكيك عن يوم وليلة من حياتي حسب.. ولكني لن أتكلم إلاّ بعد أن تعديني.
- بم..؟
- أن تكلميني عن نفسك.
- ليس في ذلك أية أهمية.

فقلت في حزم.

- لن تتكلمين عن نفسك، لن أتكلم عن نفسي..

قالت وقد أسقط في يدها.

- أهي مقايظة..؟
- تستطيعين أن تقولي.

إمتدت فترة صمت غابت فيها هناء في تأمل عميق، فسألتها.

- ماذا قلت...؟
- كما تشاء.

[عندما بدأت أعي الأشياء بدءاً من وجه أمي المدور الحنطي ومروراً بوجه أبي الصارم بعينيه السوداوين اللتين تبعثان بريقاً خاطفاً عندما يدلهم الليل، وشاربيه المفتولين الكثين، وصايته البيضاء التي يفصل الجزء العلوي المفتوح الصدر منها عن الجزء السفلي حزام جلدي عريض يزينه خنجر عربي مرصع بقطع فضية، وانتهاءاً بشعر أختي مريم المفروش على راحة كفي وأنا أسحلها بتشف صبياني نزق، وميمون ينبح بفرح حيواني لامحدود، والحقول، والجبال، والناس، ورؤوس السنابل، عُرفت بأسم.

- **شيطان دير ياسين.**

كنت شقيا ٙحد أن سمير ومحمد وعماد وعامر وباقي أقراني الذين لا تحضرني أسماؤهم الأن جعلوني رئيساً لهم، لا يتصرف أحدهم ألاّ بمشورتي ولا يفعلون شيئاً إلاّ بإمرتي، كنا نقضي

أغلب أوقاتنا في اللعب داخل البساتين وبملاحقة الدجاج والحمام والطيور والخراف الصغيرة البيضاء والبنية، وبين ساعة واخرى كنا نتسلق السياج الطيني لبستان العم ((حسان)) الكهل الأعرج ونتسلق أشجارة ونبدأ بقطف ثمار البرتقال، وذات يوم بينما كنا فوق الأشجار أبصرناه يأتي مهرولاً بصورة تبعث على الضحك، فقد كان جسده يرتفع وينخفض باتساق خاص مع كل ارتفاعة وانخفاضة لساقه المعيوبة، وقبل أن نفكر بالنزول والهرب كان تحت شجرتنا يلوح بعصاه هاتفاً.

- وقعتم في الفخ هذه المرة.

فما كان مني إلاّ أن أبرزت عضلات عضدي النحيل وقلت بمباهاة.

- إن استطعت أن تقتص من أصدقائي فلن تفلت من قبضة شيطان دير ياسين.

صرخ بي محتداً.

- هيه، أنت يا ملعون، يا زكريا، سأضربك بعصاي هذه حتى أدميك، ثم أقول لسليمان لكي يدبغ جلدك.
- إن كنت تستطيع حقاً فتسلق الشجرة .

أجاب وقد أسقط في يده.

- يا شيطان.

وقهقهنا في صخب طفولي وهو يغلي من غضب متفجر، ولكن صدى إطلاقات متواصلة جعلت العم حسان يلتفت متسائلاً

وتبدل ضحكنا إلى صمت مفاجيء متوجس، بَيد أن استمرار الرصاص جعلنا نفكر بالخوف ثم طفق عماد – لكونه أصغرنا جميعاً – يبكي، حينئذ قال العم حسان في حنان عميق.

- هيا انزلوا يا أولاد واذهبو إلى بيوتكم.

ثم، وهو يستدير ماشياً نحو كوخه الطيني في طرف البستان.

- سترك يا رب العالمين.

فهرولنا نحو الساحة التي تتوسط القرية، كانت النساء واقفات يبكين، أخذت أبحث عن أمي حتى وجدتها، كانت تبكي بحرقة، فتعلقت بطرف ثوبها، وتسللت الدموع الندية – بالرغم مني – منساحة نحو خدي المتوردين.

- ماذا حدث يا أماه؟

- دير ياسين، تفنى عن بكرة أبيها.

إنقطع صوت الرصاص فانطلقت النساء نحو الطريق الترابي يتراكضن وأنا ألهث في اللحاق بأمي حتى وصلن إلى أول حقل، كانت الأجساد ممددة على قارعة الطريق والدماء تسيل حارة تغسل التراب النيساني الرطب، إنهالت زغاريد العجائز ممتزجة مع الصيحات النسائية الثاقبة والموجعة، أبصرت أبي ممدداً على ظهره فهمست.

- ماما، ذاك أبي.

قذفت نفسها متهالكة على صدره المغسول بالدم وصرخت.

- فديتك نفسي يا أبا زكريا.

رمقني بنظرة كليلة وحاول أن يتكلم، بيد أن شفتيه لم تطاوعاه وصوته سافر إلى الداخل، ثم... ثم سكن الانتفاض الذي كان يعتور صدره، فسألت أمي.

- لماذا سقط رأسه على كتفه؟.

❖❖❖

ونحن نحمل موتانا نحو دير ياسين بغية غسلها ودفنها فوجئنا بهم في أحيائها وأزقتها.. أُستقبلنا بالرصاص وتساقطت الاجساد كحبات الزيتون، ما كانوا جنوداً فحسب بل مجندات أيضاً، وحين جرجرتني أمي راكضة نحو البيت رأيت عماد مستلقياً تحت قدمي مجندة ((هل يمكن للمرأة، هذا الانسان الرقيق أن يتحول إلى كائن شرس دموي)) كان عماد ينظر إليّ -هكذا خيلّ إليّ - باكياً، فهممت بالانفكاك من قبضة أمي الفولاذية والهجوم على المجندة، رأيت عماد -من بعيد - يعاتبني.

- خلّصني يا زكريا، أنقذني يا شيطان دير ياسين.

صرخت بحرارة.

- دعيني يا أمي، دعيني...

سحبتني أمي بضراوة وصرخت.

- لا تكن مجنوناً، ستموت.

نظرت ثانية إلى عماد وفتحت فمي بدهشة وضغطت على كتف أمي.

- أنظري أمي...!

كانت أم عماد تهجم على المجندة مهوشة الشعر، لكن رصاصة في الرأس جعل المرأة تتهاوى إلى الأرض دون حراك، حملتني أمي وهرولت نحو البيت، وقبل أن تلّجه نظرت من فوق كتفها وصرخت مرعوباً.

- واي... واي...

لقد رأيت المجندة تنظف الشفرة بملابس عماد المقطوع الرأس..........

❖❖❖

لم أفق إلاّ وأنا نائم على صدر أمي وهي تدندن بأغنية حزينة نابعة من قلب كليم، كانت تمتطي حماراً يتجشأ تحتها فيما استكانت مريم في نوم عميق في حضن أمي، وقافلة النزوح التي تمكنت من الافلات من مهرجان الموت تمتد أمامي متطاولة داخلة في عمق العتمة المنفرشة في الأديم المترامي.

- ماما.. إلى أين..؟

قبلتني بحرارة وتابعت تغني وتعملقت أمامي صورة ميمون وهو يهز ذيله ويتبعني حين أشير إليه وينبح بجذل حيواني غريزي

حين انتصر في مشادة مع أقراني ويقفز على ظهر غريمي حين أكون مغلوباً، همست لأمي.

- أين ميمون؟، إني لا أراه؟.

لم تجبني أيضاً وارتسمت صورته في غلالة الليل وهو يسابقني في الوصول إلى البيت ثم يقفز على ظهري ويلحس رقبتي مثيراً في نفسي ضحكاً لا إرادياً يجعلني أنقلب على قفاي فأضحك وأقول.

- كفى يا ميمون.

فيكف مطيعاً ويخرج لسانه ثم أقول له.

- هيا.

ونركض في الأحراش نسابق الفراشات البيض والبنية والصفر.. نظرت عبر العتمة أستجلي تفصيلاتها وعيناي تبحثان في سعي محموم، أصرخ.

- ميمون.

أنظر إلى عيون أمي، تهمس بلوعة.

- مات ميمون.

❖❖❖

وقالت كتب التاريخ وكتب الصحف المحلية العربية، وأجرت المجلات مقابلات مع النازحين واستخلصت النتيجة التي مفادها.

... وبعد مذبحة دير ياسين لم ينج منها إلاّ النفر القليل حيث نزحوا تحت جنح الليل إلى شرقي الأردن وسكنوا مع إخوان لهم أحد المخيمات المنتشرة شرقي نهر الأردن، ولم تعد دير ياسين إلاّ حادثة مؤسية تُقرأ في كتب التاريخ...]

- هذه هي قصتي يا هناء... في دير ياسين كان الابتداء، وفي دير ياسين سيكون الامتداد والانتهاء، دير ياسين لم تدخل قلبي فقط، بل توحدت بي، أصبحت جزءاً مني وأصبحت جزءاً منها. نعم ياهناء في هذه المدينة جئت وعانقت النور محطماً، جسداً بلا قلب، مطراً بدون ماء في سماء بدون غيوم، غناء بدون عاطفة، دير ياسين...

❖ ❖ ❖

هناء

قد تتصورني يا ثائر إبنة أحد الأثرياء، أو أحد الموظفين الكبار، ولكني لست من هؤلاء، ولا من أولئك، بل فتحت عينيّ وفقهت كل شيء عندما كنا نسكن في غرفة صغيرة محصورة في حيز ضيق تحت سلالم الطابق الأرضي لعمارة عتيقة في (كرم الزيتون)، ذلك الحي الشعبي الضاج بالعتمة التي تنتشر قبل مغيب الشمس في بيروت، فنهرول بعد أن نودع أولادنا المصنوعين من خرق القماش النظيفة والجديدة التي كنت أجمعها من تحت ماكنة الخياطة العائدة لأمي وأذهب بها فرحة لصويحباتي لنصنع منها دمى نسميها على أهوائنا... هكذا كنا نقضي أوقاتنا بعد رجوعنا من المدرسة حتى يلّفنا الأصيل ثم تتلقفنا الجدران المتقشرة لغرف بيوتنا المظلمة.

كنت أجلس بعد رجوعي أمام أمي وهي تخيط بهمة ونشاط مرددة مقطعاً صغيراً من أغنية شائعة وأفكر بأبي الذي لم تعاينه عيناي منذ نعومة أضفاري، سألتها.

- ماما.. كم كان عمري عندما توفي بابا؟.

تتوقف أمي عن الغناء وتهمس بحزن مفاجئ.

- ثلاث سنوات.

وتتوقف ريثما تلتقط أنفاسها وتهمس كالمصلي.

- وكان نجيب في بطني.

وأتابع السؤال.

- وكيف توفي..؟.

تتوقف أمي عن الخياطة وتنظر إليّ بعتاب رقيق ثم تستطرد.

- سقط من الطابق الثامن لعمارة تحت التشييد.

ثم مع نفسها بحنق عاجز حزين.

- رغم ذلك، لم يكلف صاحب العمارة نفسه حتى معرفة أحوالنا..

وقبل أن تكمل أمي حديثها شق آذاننا صراخ نجيب وهو يبصق بوجه دمية.

- هي، أنت، لماذا قتلت أبي؟

❖❖❖

وبعد أن أنهيت الدراسة الابتدائية فكرت في ايجاد حل لكي أخفف عن كاهل أمي التي أخذ بصرها يتضائل تدريجياً بحيث لم تر بداً من استعمال نظارة طبية سميكة، فلم اتوان في الدخول إلى مدرسة خاصة بالتمريض فيما كان نجيب يتقدم في دروسه

بأطراد حتى دخل الثانوية العامة – بعد تعييني ممرضة – بتفوق واضح.

❖❖❖

ومع السنين، أخذ نجيب يزداد تمرداً وغموضاً، يلعن بسبب وبدون سبب وضعنا المزري ويشتم (أولئك) كما يسميهم، كانت أمي تهمس لي.

- إن هذا الولد يحيّرني بتصرفاته.

ثم بتوجس خفي.

- إنه يشتغل بالسياسة.

وكاد حدسها يتحقق عندما اطلعت بالمصادفة على دفتر انشاءه، أذكر بأنه أعطاني أياه ورأسه مرفوع وعيناه مؤتلقتان، وقال.

- دفتر مذكرات.

وطاب لي أن اقرأ صفحة منه لكي أطيب خاطره أولاً وقتل مللي ثانياً، ففتحت إحدى الصفحات وأنشأت أقراء...

... ماذا تفعل الكلمات المسرطنة، هل تكتسح الأعداء أمامها كالنعاج، هل تحرّك العواطف المتحجرة في القلوب، هل تشحذ سيوفاً هندية تزحف إلى المدن الباكية لتغسل عن عيونها الأدران المتقيحة... قرأنا كثيراً مثل هذه الكلمات في الصحف اليومية...

- الامم المتحدة تدعو العدو إلى الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها سنة ١٩٦٧.

وهل الأراضي التي احتلتها قبل ١٩٦٧ أراضٍ هندية أم صينية. وهل المشكلة هي انسحاب من جزء من الأراضي المحتلة؟ ولنفترض هذا جزافاً، فهل انسحب العدو؟ الجواب قطعاً.. لا.. وهل أن حل المشكلة - مثلما يدعون — يتوقف على هذا الانسحاب الجزئي ثم نقعد ونستريح وننصب الخيام ونكرع كؤوس المدام ونغني المواويل والموشحات ويرقص الفرسان على صهوات الخيول... أكرر ثانية، هل المشكلة هي مشكلة الأراضي المحتلة عام الهزيمة؟ أم قضية شعب شُرد برمته. فالحل إذن يكمن في طرح الأطر التقليدية والمنازعات الجانبية والالتحام المصيري ثم خوض صولة الوجود المشروع...

إلى هذا الحد نظرت اليه وقلت بدهشة.

- هذا كلام خطير.

قال بحدة نابعة من أعماق صدره.

- إنها الحقيقة ياهناء.

وبعد أيام قال لي ببساطته المعهودة.

- لقد أصبحت فدائياً.

ورأيت ثائراً يعتدل في جلسته ويحدق في وجهي بذهول ويهمس.

- هناء... ما اسمك الكامل؟

- هناء بطرس حنا.

إرتعش وجهه كمن مسه تيار صاعق، تمتم بارتباك بحرارة.

- هناء..؟؟؟؟!!!!!.....

- ثائر.. ما بك؟

سألني وهو يرتجف.

- أتعرفين اسمه الحركي؟

- سعد.

تهالك على وسادته وعضها بأسنانه ثم أخذ يلكم أسياخ السرير الحديدية بقبضتيه وهو يردد.

- سأُجّن يا هناء.

أمسكت يديه برفق وقلت.

- إهدأ.

صار جسده تمثالاً، سألته.

- ما بك؟

تحركت شفتاه.

- ألديك صورته؟

أجبت بتوجس أنثوي.

- نعم.

- أرني إياها.

فاخرجتها بأصابع مرتجفة وأنا أبحث عن لساني الذي ضاع في دهاليز فمي المرتجف، وأجهد في إجلاء الأمر كالمحمومة، حالما وقعت عيناه على الصورة حتى تهالك باكياً بحرقة أليمة.

- إنه سعد، رفيقي في الميناء.

وبغتة، داهمتني رغبة حادة للبكاء ولكني أحجمت جماحه، سمعته يلهج.

- أنا كنت السبب في قتله.

لم أستطع تحمل أكثر فانهمرت الدموع تغسل خديّ، ورأيته من خلل عيوني المخضبة يعض شفتيه ويقول بوحشية لم آلفها فيه.

- كنت أنانياً يا نجيب.

واجهشت بالبكاء، تهالكت على السرير قرب رأس زكريا.

- كفى يا ثائر.. كفى.

فنظر إليّ ببلاهة وصمت، شعرت بتقزز مفاجئ منه فتصورته كالمسخ يتقرح من جسده صديد عفن، أبتعدت عنه وخطوت نحو الباب فيما كان منشغلاً بالتحديق بوجهي بنظرة توسل ثم همس.

- هناء.

وقفت.

- لا تخبريهم يا هناء.

خطوت واحدة نحو الباب.

- دعيني أكمل مشوار نجيب.

أتوقف نحو الباب الموصد، أسمعه.

- هناء، أرجوك.

أنظر نحو الباب وأتصور نفسي:..... أنزل نحو الادارة وأهمس لأحدهم.

- هناك جريح فلسطيني.

فيسألونني بفرح.

- أين..؟
- في الغرفة ٢١٣.

ثم أصعد معهم نحو الغرفة ونحمل ثائر، أنا من رأسه وهم من قدميه ثم نتجه صوب النافذة المفتوحة وهو لا يفتئ ينظر الي بعيون باكية ونلقيه من النافذة فيهوي جسده من علٍ، فأصرخ.

- لا.. لا..

وسمعته يقول بحرارة وصدق.

- هناء، إن نجيب كامن في ضلوعي، في قلبي، دعيه يعيش.

أنظر نحو مقبض الباب الدائري وأمد كفي أنوي فتحه، فأسمعه يقول بصوت اقتحم أذنيّ كالرعد.

- أنا نجيب يا هناء.

أرشقه بنظرة بليدة ومأخوذة بالعبارة... فأسمعه يقول وهو يحاول النهوض.

- أنا نجيب... نجيب.

تناقلت نظراتي بين وجهه المحتقن بالدم وأشعة الشمس المنسلة من الضلفة االيمنى المفتوحة لنافذة الغرفة، وفجأة، قطع علينا حبل الصمت صوت الباب وهو ينفتح.

❖❖❖

الفصل الرابع

ثائر

وفجأة، قطع علينا حبل الصمت صوت الباب وهو ينفتح، دخل الدكتور تتبعه سدية فوقها يتكوم جسد يرتدي ملابس أعرفها وخبرتها جيداً.

- هيا يا هناء.

هبت هناء نحو السرير المجاور وسوت شراشفه بينما قام المعين بحمل الجريح، وحشره في الفراش، سمعت صواتاً نسائياً حاداً وامرأة تدخل، متضرعة، فاتحة ذراعيها على اتساع صدرها، رافعة رأسها نحو السماء مبتهلة.

- إرحمه يا رب.

كانت محطمة تماماً فقد تهدل لحم وجنتيها واحمرت عيناها وتبعثر شعرها الأبيض أهوج كذيل حصان انفرش في الفضاء بعد قفزة حرونة، تقدمت صوب السرير الذي مدد عليه الجريح وتهالكت عند مقدمة السرير صائحة.

- يوسف، إبني، حبيبي، لاتتركني وحيدة مقصوصة الجناح، يوسف يا كبدي، قم معي لنذهب الى البيت لتعدّ لك أختك الحبيبة شاي العصاري الذي تحبه ثم نخرج سوية نحو البحر.. يوسف.. هلم يا يوسف.

واقتلعتني دوامة ثاوية وأبصرت أمي.

[مستلقية على فراش عتيق وهي تجاهد بصعوبة لكي تتكلم فيما كنت مع مريم نحيط بسريرها، قالت أخيراً بصوت هدّه المرض.

- أشعر ببرد شديد.

وقبل أن تمتد يدي إلى اللحاف صرخت مريم ملتاعة.

- ماما.

وانخرطت في نشيج صامت، لكن أمي حركت كفها وهمست.

- تعالي يا مريم.

فتعانقنا، ركدت مريم على صدر أمي، واصلت أمي.

- لن يحدث شئ يا بنيتي، لاتجزعي.

وقبل أن تستطرد مكملة فاجأتها النوبة كرة أخرى فأختض جسدها واصطكت اسنانها، وقبل أن أبادر إلى تغطيتها حتى أنفها تناهى إلى مسامعي صوت عواء كلب، وتذكرت أمي في الأيام الخوالي وهي تأسر بخوف.

- حين تعوي الكلاب كالذئاب معناه أن أحد سكان المخيم قد قضى نحبه.

ورفعت وجهها المضاء بخيوط ضوء الفانوس في عمود الخيمة فأبصرت رجفة سريعة تسري في أوصالها ثم لم تلبث أن صرخت بوهن.

- أبعدوه.. أبعدوه عني، خذني يا زكريا بين ذراعيك، خبئني،... إنه يريدني، لا .. لا .. مستحيل، لن أذهب معه.

وتختض كقشة صغيرة لا حول لها ولا قوة..

- إنه يقترب، أنفاسه تخنقني، إني أختنق، إني أقضي، زكريا، بني زكريا لا تدعه... لا تدعه...

وتصمت لوهلة قصيرة وتغمض عينها فتصرخ مريم بلوعة فاجعة.

- ماما... ماما..

ثم التفتت إليّ وتوسلت بإلحاح.

- إفعل شيئاً يا زكريا، إنها تتعذب، إنها تمو...

أسقطت في يدي فألهج بيأس ونبراتي تخنقها العبرات .

- ما عساي أن أفعل..؟

إهتاجت رموش عينيّ أمي ثم هتفت بقوة.

- زكريا، إبني، حبيبي، لا تتركني وحيدة، إنه يختطفني.

ثم تعرض عني نحو مريم.

- مريم.. إنه واقف على يمينك، أمنعيه يا بنيتي..

وتهالك جسدها هامداً فكوّرت مريم كفها وضربت فضاء الخيمة.

- أمسكته يا أماه... إني أخنقه.

ثم أفردت قبضتها كأنها تُسقط جثة.

- **لقد قتلته يا أمي.**

لم يكن الجواب إلاّ الصمت، صرخت مريم ملتاعة.

- **ماما... لا يا ماما.**

وهوى جسد مريم على صدري...]

تقدمت هناء صوب الأم الثكلى وقالت بصوت ذي نبرة حالمة.

- إن في هذا خطر عليه.

وبكت الأم بحرقة ولهجت بتوسل.

- إنقذوه، باالله عليكم، إنه وحيدي.

فيأتيني صوت مريم حاداً مؤنباً.

[إفعل شيئاً يا زكريا، إنها تتعذب]

وقبل أن تنحني الأم جانباً إنقذفت فتاة راكضة نحو السرير، ثم تكومت على بلاط الغرفة مولولة.

- يوسف، حبيبي، لا.. لا يا يوسف، مستحيل.. أه.. مستحيل.

لا زلت أتذكر علي، رفيقي الذي استشهد في إحدى العمليات التي نفذناها داخل الأرض السليبة، حين ناولني ((زمزمية)) الماء وهو يقول بثقة الرجال.

- لا مستحيل تحت الشمس يا ثائر.

ورددتها أنا أيضاً مفجوعاً.

[تقدمت نحو الخيمة مهرولاً، وحالما وصلتها هتفت.

- مستحيل...؟!.

كان بابها مفتوحاً والنيران في فراشي فأسرعت مهرولاً نحو سطل الماء، ولما اوشكت على الخروج من الخيمة لجلب المزيد من الماء سمعت صوت أنّة عميقة تنبعث عن قرب، تهيأ لي أني أسمع صوت رجاء حار.

- زكريا، أنا هنا..

نظرت في أرجاء الخيمة أستجلي التفصيلات من خلل الدخان المتصاعد، كانت خاوية فخرجت ودرت حولها، ولما وقعت عيناي على الجسد المسجى صرخت مذهولاً.

- مريم.

حملتها إلى الخيمة، كان وجهها أصفر مثل ليمونة، همست بحرارة.

- مريم.. أين الاصابة؟

والعينان العسليتان إذ تشيران إلى موضع الاصابة توسد رأسها ذراعي وشهقت شهقة قصيرة، فصرخت كالملدوغ .

- مستحيل... مستحيل.

ودفنت وجهي في وجهها...]

سأل الطبيب.

- ما اسمه..؟

نبرت الام.

- يوسف عادل.

إلتفت الدكتور إلى هناء وقال.

- الاصابة.. رصاصة مستقرة في الكبد.

ثم وضع الرق الشعاعي الذي كان يوضّح موقع الاطلاقة ونظر إلى حدقتي الجريح، قال ببرود.

- فقد دماً كثيراً.

والتفت إلى هناء.

- علّقي له مغذياً لحين معرفة صنف دمه.

صوّتت الأم بتوسل.

- إنقذوه... أتوسل إليكم، إنه وحيدي.. لا أريده أن يموت.

قال الطبيب بحزم.

- إنه يحتاج إلى دم.

في هذه اللحظة دخل الممرض وقال للطبيب..

- صنف دمه [O−]

همس الطبيب بقنوط.

- هذا ما كنت أخشاه.

كشفت الأم عن ذراعيها.

- أنا أعطيه.

فرددت بنفسي، إنه عدوي وفي حالة خطيرة ويحتاج إلى دم صنف [O−]، يعني، نفس الصنف الذي يحمله دمي، لماذا لا أعطيه، وتعملقت أمامي صورة سعد وهو يلتفت بعتاب رقيق كأنه يقول لا تعطه...، ولكني أسرت لفسي: إنه الآن إنسان مجرد من اي انتماء، إنسان بحاجة إلى دم كي تسري الحياة في عروقه، سأكون مجرّداً من الانسانية لو لم أتبرع بدمي، وتململت في فراشي واستويت متكئاً على الوسادة وقلت مواصلاً... إن حياته مرهونة بقنينة أو قنينتين من دمي، وليس ثمة خطر شديد عليّ لو وهبته الحياة، ولكن الصوت الخفي في داخلي صرخ بحنق.

(انه من الأعداء)

فأجبته بحرارة وصدق.

- إنه إنسان.

(ولكن، تذكر الوحشية التي يُقتل بها الانسان، تذكر المأساة)

فأهمس له بود.

- يجب آلا نأخذ الفرد بجريرة الكل.

ويصمت الصوت عن لا اقتناع، وتراودني صورة.

[عماد الراكن بين قدمي المجندة]

وأبي وهو.

[يسقط رأسه على كتفه]

وأمي وهي تنتفض.

[أبعدوه... أبعدوه، خذني يا زكريا بين ذراعيك]

فقلت في هدوء.

- أنا أُعطيه الدم.

وأسر الغرفة صمت نادر كانت الوجوه فيها ضاجة بالانفعالات المصطرعة، فوجه الدكتور كسته دهشة ممزوجة بتأمل طارىء عميق، فيما اصطبغ وجه هناء بذهول مكتسح بنظرة معتذرة خجلى، بينما إلتحف وجه الأم تعابير لا تراها إلاّ في الرضيع الذي يظفر –بغته - بثدي أمه، فيما جمدت الفتاة كمن مسها - للتو - تيار كهربائي صاعق، واستوطن فضاء الغرفة صمت متطاول تتخلله دقات رقاص الساعة الجدارية.

وكان أول من رجع إلى وعيه أم يوسف التي ما لبثت أن قفزت إلى سريري وأنشأت تلثم يدي وعبارات الشكر تنثال من فمها كمزنة

مطر ربيعية، كان وقع القبل في قلبي كصدى أغنية حالمة فأحتضنتها بحب صميمي وساحت الدموع تمسح خديّ، ثم شعرت بشفاه الفتاة وهي... تقبّل قدميّ، فذبت خجلاً وتكومت في فراشي في طريقة مني لإيجاد مخرج، ولكن الدكتور جعلنا نصرخ نحن الثلاثة بانكسار حين دوى صوته في أرجاء الغرفة.

- لن تستطيع.
- لماذا...؟
- لأنك في دور النقاهة.

قلت بنفس هدوئي.

- أنا الذي سأتحمل مسؤولية عملي هذا.

ولكنه فجأة قال.

- ومن أنت..؟

وكأن شفرة حادة انغرزت بين ضلوعي فهمست لنفسي بألم.

- من أنا...؟

ثم قلت في هدوء عجيب.

- اسمي نجيب..
- نجيب ماذا..؟.
- نجيب بطرس.

لم يفطن الطبيب إلى معنى الاسم فرشقتُ هناء بنظرة حادة قاطعة أمراً اياها بألاّ تأتي بأية نأمة، فصمت الطبيب وتهلل وجه الام وارتدى وجه الأخت شكر عميق فيما طفقت هناء تحدق بوجهي بذهول ثم اقتربت مني وأوهمتهم بأنها تحاول تسوية الفراش وسألتني بصوت خفيض.

- لماذا...؟

- يجب أن أنقذه.

كان الدكتور مشغولاً بكتابة حالة المريض في دفتر صغير والأم والأخت مأخوذتان بالجسد المسجى فيما سألتني هناء.

- لماذا بحق السماء؟

- إنه الآن إنسان.. إنسان مجرد من أي انتماء.

التفت إليّ الدكتور فتظاهرت بالتحديق نحو السماء الكائنة خلف النافذة المفتوحة، وقال لي.

- ولكنك سترجع خطوات إلى الوراء.

ابتسمت وقلت بصوت واثق.

- المهم أن يعيش هو أيضاً.

فسمعته يهمس.

- شعور نبيل...

لم تتحمل الأم تردد الطبيب فتقدمت إليه ونبرت بتوسل.

- أرجوك دكتور.

فقلت لها بتوكيد.

- سيوافق يا خالة.

فهز الدكتور رأسه وردد.

- ليس في اليد حيلة.

ثم قال لهناء.

- أحضريه إلى مصرف الدم.

ثم قال بصوت مسموع وهو يخرج.

- مجنون.

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

ثائر

دخلوا دون أن يطرقوا الباب، كانت هناء تهم بفتح النافذة، ونادية أخت يوسف جالسة على الكرسي تنظر نحو يوسف الذي خرج من غرفة العمليات قبل نحو ساعة من الزمان، والشمس تتسلل خلل كوة صغيرة قرب سقف الغرفة... تقدموا نحوي، إثنان منهم مسلحان والثالث يحمل باقة ورد، هتف الصوت الكامن في أعماقي.

(لقد صدق حدسي)

التفتت إليهم هناء وسألتهم بنبرة حذرة خائفة.

- ماذا تريدون؟.

قال حامل الورد ضاحكاً.

- نشكر الفدائي الذي أنقذ يوسف.

جفلت نادية نظرت نحوي بجزع فيما كانت همهمات يوسف المخدرة تأتيني كالعاصفة... أقتل... اقتل الغرباء... أسرعت هناء نحوي واعترضت طريقهم قائلة.

- من قال إنه فدائي؟

- أوه .. لا تخافي، لا تخافي، نحن نعلم أنه شقيقك نجيب.

واستطرد الثاني.

- وأنه زكريا.

ونبر الثالث.

- وإنه فدائي...

وهنا اندفعت نادية إليهم صارخة.

- أتركوه وشأنه.

ثم هتفت بذهول.

- حكمت.

فقال حكمت.

- أسكتي يا نادية.. لا دخل لك بهذا الأمر.

صرخت بوجهه.

- حتى لو كان كذلك فإنه وهب الحياة ليوسف.

ثم استطردت والعبرة الدافعة الحارة تستوطن تعبير وجهها الحلو.

- وأنت يا حكمت؟.

ثم نحوهم جميعاً.

- وأنتم، أين كنتم حين كان يوسف بأمس الحاجة لكي تهبوه الحياة، ولكن أنتم ما خلقتم للمساعدة في ديمومة الحياة، بل لسلبها بوحشية، ياخسارة..

ثم انخرطت ببكاء حار حقيقي دافق، بينما كان صوت يوسف المتقطع يقتحم سماء الغرفة... اقطع رأسه، إنه طفل، نعم إنه طفل يا رفيقي، لكنه فلسطيني، أما تعرف أنه علينا أن نمارس جميع الوسائل لمحو عرقهم، انهم يتناسلون بغزارة كالذباب... أتخاف، يالك من جبان...

وتقدمت هناء نحوي وهي تقول..

- من قال إنه فدائي؟، أريد إثباتاً.

قال حكمت.

- أنت أيتها الممرضة..؟

سألت كمن صعقت.

- أنا...؟.
- لقد سمعنا كل شيء من خلف الباب أيتها الفاضلة هناء، سمعنا قصة زكريا الممتعة عن دير ياسين..

زعقت هناء بوجوههم.

- هيا غادروا الغرفة وإلاّ...

واستطردت نادية بحرارة.

- وإلاّ أخرجناكم عنوة.

صاح حكمت ضاحكاً.

- دكتور...

فأنفتح الباب ودخل الدكتور يتبعه طابور من الممرضات، نظر نحو هناء بعتب عاجز، ثم طأطأ رأسه، وكان يوسف لما يزل يهذي.. أتغمض عينيك؟ يالك من رقيق يا رفيق، أنظر إليه، إنه يشخر، طبعاً شخيره حاد لأني قطعت قصبته الهوائية، يصرخ... لو تهيأ لي أن أقطع صرختة قبل هذة اللحظة لكنت قاطعها وهو في جوف أمه، كفى يا رجل.

بصقت نادية بوجوههم جميعاً ثم صرخت بيوسف.

- تقتل طفلاً بهذه البساطة، ليت أمك لم تلدك..

وهجمت عليه، بيد أن حكمت هتف برفاقه.

- هيا ماذا تنتظرون، ستقتل أخاها، أخرجوها من هنا.

وكان آخر ما رأيت منها وهي تخرج محمولة، تلك العينين الجميلتين المخضلتين بالدموع الندية وشهقه إبتعد صداها بعد أن أغلقوا الباب.

تقدم حكمت نحو هناء وقال.

- والآن نرجو من المناضلة أن تفسح لنا المجال لتقديم الشكر إلى الفدائي.

فأرتمت هناء على صدري راجفة ولهجت بتوسل حار.

- لا.. لا.. لا تقتلوه.. أقتلوني أنا بدلاً منه.

صاح حامل الورد.

- لقد اكتشفت شيئاً جديداً يا حكمت، إنها تحبه، جولييت تحبه....

هتف حكمت بغضب.

- وقتنا قصير.

صرخت ملتاعة وهي تركن وجهها بصدري.

- لا.. لا..

فرفعت وجهها براحتيّ، ومسحت الدموع الناتئة من العينين الغاليتين وهمست.

- اخرجي هناء، اخرجي.. لقد حان موعد السفر..

صاح حامل الورد.

- روميو.. والله روميو متطور عصري، يفهم الأمور جيداً.

نبرت هناء بأسف عاجز حزين.

- نجيب.. سيقتلونك يا نجيب.
- لن يقتلوني يا هناء، لن أموت، سأسافر.

تابع حامل الورد بانشراح.

- هذه أجمل تمثيلية رأيتها في حياتي، دعوني أصف المشهد.... والآن سيداتي آنساتي سادتي، ننتقل بكم إلى غرفة في الطابق الرابع عشر من مستشفى ببيروت، حيث

يرقد روميو مصاباً بطلق ناري في صدره، وعلى صدره، تمددت جولييت وهي تذرف الدموع...

قاطعه حكمت زاجراً.

- كفى... ليس وقتاً للتسلية.

ثم التفت إلى هناء.

- هيا أخرجي.

فأزدادت هناء تعلقاً بي، حينئذ التفت حكمت إلى الرجال، فتقدم أحدهم وأمسكها من كتفيها، أخذت تعض يديه وتصرخ.

- نجيب... ثائر.. نجيب..

وحين حملها بين يديه همستُ.

- وداعاً.. وداعاً يا هناء.

ومحمولة على الكتفين القويتين أُخرجت وهي كتلة مستعرة من العضلات المتراقصة بجنون، وصوتها الصاعق صافرة إنذار مجلجلة في ثنايا جمجمتي المستكينة لمصيرها الآتي.

تقدم مني حكمت وقال بصوت خطابي محمل بالسخرية.

- بهذه المناسبة السعيدة جداً على قلوبنا يسرني ورفاقي أن نقدم شكرنا الجزيل على قيامك بهذا العمل الانساني النبيل تجاه رفيقنا.

ونثر حامل الورد وروده حولي باتساق نظيم وهو يردد بصوت تمثيلي.

- وبما أن الورود هي أجمل هدية عرفاناً بالجميل، فإني أقدم لك هذه الباقة بكل تواضع.

وكان الصوت يهمي بداخلي.

(نهاية رومانسية)

أصرخ بوجهه ساخطاً.

- إنها البداية.

يقاطعني الصوت بلجاجة.

(سوف تموت)

أجيبه بثقة.

- سوف أسافر.

وصحوت على صوت حكمت.

- هذا ليس وقت الهذر، هيا إلى العمل.

ثم أخرج حبلاً متيناً وأعطاه إلى حامل الورود وقال.

- جنان،... أربط يديه ورجليه إلى قوائم السرير.

ثم استطرد وهو يرمقني بنظرة عداء.

- إنه عجل سمين، إن لم نربطه جيداً سيسبب لنا المشاكل.

ونظرت إلى السماء عبر النافذة، رأيتها سوداء، سوداء كالليل المدلهم، وثمة سكون شامل غريب يغلّف الأرجاء، وبغته داهمتني قشعريرة مفاجئة سرعان ما أثلجت أطرافي ورأيت.... رأيت نجيب يدخل من النافذة، هتفت بفرح لا محدود..

- لا أصدق. نجيب، هل أنت نجيب حقاً؟.

كان يبتسم بوجه مؤتلق وعينين كعيني الصقر، همس لي.

- لا تخف يا ثائر، ستسافر معنا.
- معكم!!... مع من..؟.
- معي، ومع مريم، وأمك، وأباك، ومع عماد...

وفجأة رأيتهم أمامي وكأن الارض ولدتهم، أو هبطوا من الخالق، صرخت.

- أبي.. أمي.. مريم.. عماد.

كانوا يضحكون، يضحكون، وعماد يكركر بنزق طفولي محبب، رفعته بيدي وأنشأت أقبله وأناغيه، رأيتهم يفرشون بساطاً أبيض كالثلج على بلاط الغرفة، ثم تقدم نجيب وقال لي بصوت مموسق.

- تفضل يا زكريا.

وصرخ يوسف بجنون... أقتلوا... أقتلوا.. الغرباء...

نظرت حولي... كنت موثقاً بالحبال من إخمص قدميّ حتى قمة رأسي المشدود إلى الخلف، نظرت إلى وجوههم، كان الشيطان في دواخلهم ينطق بالشهوة، قال حكمت.

- والآن أيها الفدائي سنكافئك.

وبرز جنان بأسنانه المتفرقة ووجهه المتغضن وأطلق صوتاً كفحيح الأفعوان.

- الآن سنرسلك إلى جهنم.

وسحب مدية يتألق نصلها من حزامه، واقترب مني ببطء قاتل ثم وضع الشفرة على رقبتي المكبلة.

قلت له وعينيّ في عينيه..

- هيا، هيا اذبحني.

بيد أن حكمت زجره قائلاً.

- لا تفعل يا جنان.

ثم التفت اليّ، ضحك لفترة قصيرة وقال.

- لن نقتلك هكذا، مرة واحدة، ولكن بمراحل.. سنبدأ الآن من الأسفل.

أسر الصوت الداخلي.

(طريقة رائعة وعصرية)

واستعر ألم ممّض بين فخذيّ، خرجت الصرخة من حلقي مدوية.

- أخ... أ...خ.........

وشعرت بنافورة من سائل حار يتدفق من أسفل سرتي، ثم رأيت جنان يحمل قضيبي المقصوص بكفه ويتقدم صوب رأسي وهو يحملق بقطعة اللحم بعيون ذئبية وحشره في فمي، بصقتها على وجهه صارخاً بغضب ممض.

- قتلة، سفاحون...

صرخ الصوت في داخلي.

(إكتشاف مذهل)

ورأيت نجيب يشيلني بين يديه كالقشة، ويقول بصوته الملائكي.

- حان وقت السفر.

ورأيت من علٍ - وأنا محمول - عماد الطفل وهو يمسك بطرف ثوبي ويسحبه عدة مرات.

- ستسافر معنا يا ملاك دير ياسين.

سألته بحنو أخوي دافق.

- أين...؟.

- إلى دير ياسين.

وسمعت وأنا أتلظى من الألم صوت جنان.

- إنه يموت يا حكمت.

كان الألم يستعر في فخذيّ، بطني، صدري، وسواقي السائل الاحمر تتدفق من جسدي دفاقة طافحة، سمعت حكمت يقول.

- أقطع رأسه.

وفتحت عينيّ بتثاقل، كان جنان يحفر أسفل الرقبة المنحورة حتى غدت كحفرة صغيرة، ثم عمد إلى إحدى قوائم السرير وثبت رأسي في طرفه العلوي السائب، كانت عيناي - في رأسي – مغمضتين بوداعة، وثغري مسدود أو نصف مسدود وكأنه يريد ان يتفوه بكلمة ما، وجسدي شرائح دموية، والورود المشبعة بالدم تشكل في استكانتها البلهاء لوحة تجريدية مبتكرة... تقدم حكمت من يوسف وهتف به.

- لقد قتلناه يا يوسف.

كان يوسف يستكين في غفوة رخية وقد فتر ثغره عن ابتسامة مشرقة، وسمعت هناء تبكي ثم... صرخة طويلة ومؤلمة، وصمت كل شيء، قلت في جزع.

- هناء.. إنها هناء يا نجيب..
- لا بأس عليها.
- سيقتلونها يا نجيب..
- لا تجزع يا زكريا، هناء لن تموت..

ثم أجلسني على البساط، هرع اليّ عماد وافترش حضني ثم قبلني، أحسست –بغته - بأني أسبح في الفضاء، نظرت بدهشة، كنت أحلق في سماء الغرفة ونجيب وأمي وأبي ومريم يمسكون أطراف البساط الأربعة وهم يطيرون، وقبل أن يخرجوني من النافذة قلت لهم..

- توقفوا لحظة.

همست مريم.

- لماذا..؟.

قلت.

- أريد أن ألقي نظرة أخيرة إلى جسدي.

ورشقته بنظرة حزينة، إستدار الرأس وفتح عينيه ناظراً اليّ ثم قال.

- الجنة.

وحلقت فوق مدينة أسرني جمالها، سألتهم.

- ما اسم هذه المدينة؟.

قال أبي.

- إنها بيروت.

أفلتت صرخة متعجبة.

- بيروت؟!.

قالت أمي.

- أجل أنها بيروت السنين القادمة، بيروت المستقبل يابني...

ومحلقاً لا يزال البساط بي فوق المدن الجميلة الأخاذة المغسولة بشمس ذهبية والأراضي الحبلى ببيارات البرتقال وبساتين الكروم وغابات الزيتون ووجهتي دير ياسين.

❖❖❖

توطئة

- إنه القصف مرة أخرى..

تعالت أصوات الإنفجارات، وأومض الليل ببريق باهر، همست هناء.

- إنه قريب جداّ.

وتحرك النصف العلوي من جسدها وأزاحت اللحاف عن الجزء السفلي من جسدها وألقت عليه نظرة حزينة..

[- إنه نجيب... شقيقي.. أخي..

ثم عضت أحدهم – الذي كان يكبّلها بيديه الفولاذيتين – فصرف على اسنانه متألماً، لم تفلت عضده من أسنانها إلاّ بعد أن أحست بأنها أصبحت طليقة، ولكن في الهواء، ثم وقعت على السلالم الكونكريتية، وتهاوت نحو الأسفل وثمة في الظهر ألم لا يطاق]

ألقت نظرة عاجزة نحو الكرسي ذي العجلات وهمست.

- أين أنت الآن يا خالة وارينا؟

[لا تدري أكان حلماً أم حقيقة؟، لا تدري البتة، بيد أن كل الذي تعلمه أن عينيها كانتا مفتوحتين تحدقان في تقاسيم وجه الطبيب وهو يهمس بأسف لطبيب آخر لصقه.

- **الحبل الشوكي مقطوع.**

ثم سمعت الآخر.

- مسكينة ياهناء، ستعيشين حياتك مشلولة.. يا للأسف !

وحملتها اليدان الناعمتان والقويتان للخالة وارينا ثم وضعتها على الكرسي ودفعته نحو باب الغرفة...

دخلت العالم الكبير – الصغير، الذي أصبح ملاذاً لكل من يود معانقة الحياة باصرار، نظرت إلى الوجوه... جامدة، صافنة، راعبة، الخوف فيها ديكتاتور، والصمت فيها ملك يجلس على عرشه بكسل وبلادة، ... الملجأ يعج بالأجساد، كل الزوايا مملوءة، دفعتها وارينا نحو الحائط، فوقها تماماً ثمة نافذة متكسرة الزجاج يأتي منها الهواء بارداً يصفع الوجوه فيشيع فيها يقظة حذرة وتوجس خائف، نظرت هناء إلى الوجوه تستقرئ دواخلها، وجدتها تنظر نحو علاء، وعلاء بوجهه الأسمر ينظر نحو الجميع ويستطرد مواصلاً.

- إنها لعبة لا نزال نعيش فصولها الدرامية.

ثم يتوقف ويسأل أحدهم.

- أتدري يا صباح، لِمَ تدور تدور رحى هذه الحرب؟

فيقاطعه صباح بحدة.

- لكي يتطهر لبنان من أدرانهم.

طفل في الزاوية صرخ بلجاجة.

- ماما.. ماما، أريد أن أتغوط.

وإلتوت الأعناق نحو الطفل الذي اتجه نحو أمه التي افترشت الأرض وقاربت قدميها، أصابع القدم اليمنى لصق اليسرى، وكعب اليمنى متوحد باليسرى، وقف الطفل ونزع بنطاله القصير، رفعته أمه والصقت مؤخرته العارية بالفسحة المحصورة بين القدمين فأخذ الطفل يعصر بصوت مسموع، هتف كهل بضراعة.

- من أجل الأطفال، من أجل الأمهات البائسات، من أجلنا نحن الضعفاء، أبتهل إليك يا ربي أن ترفع هذه المصيبة عنا.

واصل علاء كلامه.

- إنها ليست مشكلتك حسب يا صباح، إنها مشكلة الجميع، حين استطاع الأعداء أن يقنعوكم بنظريتهم التي تقول... إن الفلسطينيين حينما يدخلون أرضاً يعيثون فيها فساداً وفوضى.
- إنها الحقيقة.

إعتدلت هناء –بصعوبه بالغة - على كرسيها وفي نفسها شئ، وقبل أن تبادر بالكلام ألقت نظرة مذهولة نحو رجل انزوى لصق الحائط، وبكّر اللحظات سمعت صوت رشرشة، فهمست مشدوهة.

- إنه يبول!!!!.

قام الطفل، مدت الأم يدها ومسحت عن مؤخرته القذارة ثم طفقت تلبسه، شعرت هناء بغثيان مفاجئ فمدت يدها نحو عجلات الكرسي ودفعتها نحو الأسفل فأنطلق الكرسي مندفعاً نحو الأمام، هتفت وارينا.

- هناء..

قالت هناء بعصبية.

- سأخرج.
- القصف شديد.
- ليكن... إنه أفضل من القذارة والبول.

واندفعت بعربتها ذات العجلات خارجة من الملجأ نحو الليل والرصاص والموت المتجول في شوارع المدينة وأزقتها.

❖❖❖

كانون الاول ١٩٧٦

نيسان ١٩٧٩

السيرة الذاتية:

هيثم بهنام بردى

الأسم الكامل: هيثم بهنان جرجيس بردى

- ولد في العراق/ عام ١٩٥٣.
- عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو نقابة الفنانين العراقيين.
- عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية.
- رئيس تحرير مجلة (إنانا) التي تعنى بشأن المرأة.

حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:

- الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام ١٩٨٠.
- ملتقى القصة العراقية في بغداد عام ١٩٩٥.
- ندوة الرواية العربية في بغداد عام ٢٠٠٢.
- الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام ٢٠٠٥.
- الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د. علي جواد الطاهر) في بغداد ٢٠٠٨.
- مهرجان الجواهري عام ٢٠١٠ وعام ٢٠١٢.
- مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام ٢٠١٠.

- معرض إيطاليا الدولي للكتاب في إيطاليا (مدينة تورينو) عام ٢٠١٤، ألقى فيها محاضرة في "القاعة الزرقاء" عن الأدب السردي العراقي الحديث.

أصدر أربعة وعشرين كتاباً موزعاً على:

الرواية:

١. مار بهنام وأخته سارة/ مركز أكد للطباعة والإعلان – أربيل ٢٠٠٧.

٢. قديسو حدياب/ مركز أكد للطباعة والإعلان – أربيل ٢٠٠٨.

- صدرت باللغة السريانية عن دار منارة في أربيل عام ٢٠١١ ترجمة: كوركيس نباتي.

٣. أحفاد أورشنابي/ دار ثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - ابوظبي، بيروت ٢٠١٥.

الرواية القصيرة:

١. الغرفة ٢١٣/ مطبعة أسعد – بغداد١٩٨٧.

- صدرت طبعتها الثانية عام ٢٠١٧

٢. الأَجسَاد وظِلالُها/ دار أمل الجديدة – دمشق ٢٠١٧

القصة القصيرة:

١. الوصـيـة/ دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، وزارة الثقافـة – بغـداد ٢٠٠٢,

٢. تليباثي/ دار نعمان للثقافة– بيروت ٢٠٠٨.

- صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام ٢٠١٠.

- صدرت طبعتها الثالثة عن دار أمل الجديدة بدمشق عام ,٢٠١٥

٣. نهـر ذو لحيـة بيضـاء/ دار رنـد للطباعـة والنشـر والتوزيـع – دمشق ,٢٠١١

٤.أرض مـن عسـل/ دار الحـوار للنشـر والتوزيـع– اللاذقيـة، سـوريا ٢٠١٢.

القصة القصيرة جداً:

١. حب مع وقف التنفيذ/ مطبعة شفيق– بغداد ١٩٨٩.

٢. الليلـة الثانيـة بعـد الألـف/ منشـورات مجلـة نـون – الموصـل ١٩٩٥.

٣. عزلة انكيدو/ مطبعة نينوى – بغداد ٢٠٠٠.

٤. التماهي/ دار الشؤون الثقافية العامـة، وزارة الثقافة – بغداد ٢٠٠٨.

٥.القصة القصيرة جداً/ الأعمال القصصية ١٩٨٩—٢٠٠٨ / دار رند للطباعة والنشر والتوزيع— دمشق ٢٠١١.

أدب الطفل:

١. الحكيمة والصياد/ مسرحية للفتيان/ مطبعة بيريفان— أربيل ٢٠٠٧,

٢. مع الجاحظ على بساط الريح/ سيرة قصصية للفتيان— دار رند للطباعة والنشر والتوزيع— دمشق ,٢٠١٠

٣. العشبة/ مسرحية للفتيان/ مطبعة الديار— الموصل ٢٠١٣.

الإعداد والتقديم:

١. القصة القصيرة جداً في العراق/ إعداد وتقديم— المديرية العامة لتربية نينوى— الموصل ٢٠١٠.

- صدرت طبعتها الثانية "مزيدة ومنقحة" عن دار الشؤون الثقافية عام ٢٠١٥.

٢. سركون بولص عنقاء الشعر العراقي الحديث/ إعداد وتقديم— إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية_ أربيل ٢٠١١ .

٣. القصة القصيرة جداً... الريادة العراقية/ إعداد وتقديم/ دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع - عمّان، الأردن ٢٠١٦

الكتابة المفتوحة:

- الـذي رأى الأعمـاق كلـها/ كتـاب انثيـالات – مطبعـة ميديا – أربيل ٢٠٠٧.

سلسلة مبدعون عراقيون سريان:

١. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية/ إعداد وتقـديم – إصـدار المديريـة العامـة للثقافـة والفنـون السريانية – أربيل ٢٠٠٩.

- صدرت طبعتها الثانية عن دار تموز للطباعة والنشر – دمشق ٢٠١٢.
- صدرت ترجمتها إلى اللغة الكوردية من قبل أحمد محمد إسماعيل وصدرت عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية عام ٢٠١٢.

٢. قصاصـون عراقيـون سـريان في مسـيرة القصـة العراقيـة القصيرة جداً/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ٢٠١٢.

٣. روائيـون عراقيـون سـريان في مسيرة الروايـة العراقيـة/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ٢٠١٢.

٤. كتّاب أدب طفل عراقيون سريان في مسيرة أدب الطفل العراقي/ مطبعة شفيق– بغداد ٢٠١٣.

كتب صدرت عن أدبه:

- في القصة القصيرة

١. تجليات الفضاء السردي– قراءة في سرديات هيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: أ. د محمد صابر عبيد/ دار تموز للطبعة والنشر والتوزيع– دمشق٢٠١٢.

٢. شباط ما زال بعيداً، دراسات نقدية في المجموعة القصصية أرض من عسل لهيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: جوزيف حنا يشوع/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٢.

٣. الكون القصصي، تجليات السرد وآليات التمظهر، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ محمد إبراهيم الجميلي/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٣.

٤. المهيمنات القرائية وفاعلية التشكيل السردي في مجموعة نهر ذو لحية بيضاء/ إعداد وتقديم ومشاركة: الدكتور خليل شكري هياس/ دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق ٢٠١٤.

٥. جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د.

نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق ٢٠١٤.

• في القصة القصيرة جداً

١. حبة الخردل/ دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر/ منشورات اتحاد الأدباء السريان– الموصل ٢٠٠٥. صدرت طبعته الثانية عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام ٢٠١٠.

٢. شعرية المكان في القصة القصيرة جداً– قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق٢٠١٢.

٣. الثريا، دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم: خالص ايشوع بربر/ مطبعة شفيق - بغداد ٢٠١٤.

• في الحوار

– أسماء في ذاكرة المدينة - هيثم بهنام بردى/ حوار: نمرود قاشا، تقديم: معد الجبوري/ مطبعة شفيق - بغداد ٢٠١٣.

دراسات أكاديمية عن أدبه:

- حاز الأستاذ محمد إبراهيم الجميلي على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً" من كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل بتأريخ ٢٠١٣/٣/٣ عن رسالته الموسومة (السرد في قصص هيثم بهنام بردى القصيرة).
- حازت الأستاذة نادية نزهة سليمان على شهادة الماجستير بدرجة "امتياز" من كلية التربية للبنات/ جامعة تكريت، بتاريخ ١٧/ ٢/ ٢٠١٤ عن رسالتها الموسومة: (جماليات القصة القصيرة جداً/ هيثم بهنام بردى مثالاً).
- حاز الأستاذ همام حازم عطا على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً عالي" من كلية الآداب/ جامعة تكريت، بتاريخ ٢٠١٥/١/١١ عن رسالته الموسومة (العتبات النصية في سرد هيثم بهنام بردى القصصي).

الجوائز:

- حائز على جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام ٢٠٠٦.
- حائز على الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام ٢٠٠٦ عن قصته القصيرة "النبض الأبدي".
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة لمسابقة أدب الأطفال/ دار ثقافة الأطفال/ جائزة (عزي

الوهاب للنص المسرحي) عام ٢٠١٠ عن مسرحيته الموسومة (العشبة).

- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها قصر الثقافة والفنون في محافظة صلاح الدين عام ٢٠١١ عن قصته الموسومة (الرسالة).

ورد اسمه:

- في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين– الجزء الثالث– صفحة ٢٨١) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام ١٩٩٨ لمؤلفه الأستاذ حميد المطبعي.
- في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين – صفحة ٦٠٠) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل– عام ٢٠٠٧، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

الترجمة:

- ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية والإيطالية.

❖❖❖